٥٢١/ ح١١/ ٧٧

مسائل البيان من أساس البلاغة للزمخشري

رسالة ماجستير

٨٠/٠

إعداد

حسام مصطفى عبد الفتاح اللحام

ح ١/ ٢٨٥٦

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي

مجرد

قدّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الأردنية

٥/ ٢/ ١٩٩٠م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــداء

إلى الـــروح الـــتي مـا انفكّـتْ تطـوّفُ فَـوْقَ كـلّ حَـرْفٍ خُـطّ

فـي هَـــذِهِ الصّفحـــات .....

إلـى الـرّوح الـتي أَهْـدَتْ إلـيّ عَـبْرَ البيـان .....

واشرأبّـــت لِشـــارِ غَـــرْسٍ طالمـا انتَظَرَتْـــهُ .....

إلـــى الـــرّوح الـــتي اختَطَفَتْهَـا يـــدُ القَـــدَرْ .....

مِـنْ قَبْـلِ أَنْ تجنـــيَ الثّمَـــرْ .....

إلـى روح أبـي أُهـــدي هـــذه الثّمَـــرَات .....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــة

شَهِدَت البلاغةُ العربيّةُ - وتشهدُ - محاولاتٍ نَهَضَ أصحابها ، لاستقصاء مسائل البلاغة من مصادرها الأصيلة ، حتّى لقد أصبح ذلك أمرا مألوفا لَدى الدارسين . (١)

ولا عجبَ فإنّ البلاغة العربيّة ، في حاجة ، لِمَنْ يقف على مسائلها ، ويكشف عن أسرارها ، ويرصد حركتها ، ونموّها ، مذ كانت لمحة أو خاطرا ، إلى أن غدت فنّا مصقولا ، أو فكرا مسئولا .

وهذه الدراسة ، محاولة تَنضاف إلى ما سبقها ، غير أنّها ذاتُ نمطٍ مغاير ، لم تألفه الدراسات البلاغية من قبل ، وذلك لأنّها تتّخذ من المعجم اللغوى مَوْطِناً لها ، متوخّيةً إبرازَ الوظيفة البيانية لَه ، ومُنبّهةً على وُجوب العناية بـه .

وكان أساس البلاغة للزمخشرى المتوفّى سنة (- ٥٣٨هـ) هو الأنموذجَ الحيّ الذى يعكس السماتِ البلاغيّةَ في المعاجم عامّة ، ويُعدّ مؤلّفهُ أوّلَ مَنْ تنبّه إلى ذلك ، إذ بنى أساسه بناءً مُحكما ، وأقام له عنوانا لم يُسبق إليه ، دالّا على غايته منه .

إنّ دارسي الأساس لم يقفوا الّا على الجوانب اللغوية فيه ، وكانت نظراتهم تقف عند هذا الحدّ ، ولا تتجاوزه ، وكانوا إذا عرضوا إلى الناحية البلاغية في الأساس يكتفون بذكر ما لهذا الكتاب من أهمّيةٍ في تربية الملكة البيانية ، وعنايةٍ بالعبارة الأدبية ، بل إنّ الكتاب الوحيد ، الذى حاول فيه صاحبه ، أن يُنبّه إلى بعض المسائل ، كان مَعْنيّا بإيراد شاهدٍ أو يزيد على تلك المسألة البلاغية ، التي ظَفِر بها المؤلّف ، وقد

---

(١) من هذه المحاولات :
أ - سرّ الفصاحة لابن سنان دراسة وتحليل ، دكتور عبد الرازق أبو زيد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
ب - بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبّار وأثرها في الدراسات البلاغية ، د . عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
جـ - معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني ، د . محمد بركات حمدى أبو علي ، دار الفكر ، عمان ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء حديثه - هذا - عرضا ضمن بحثه اللغوي في المعاجم العربية ، وكان في صفحات قليلة جدا . (١)

ولهذا كان لا بدّ من دراسة شاملة ، لمسائل البلاغة ، من الأساس ، تفي الكتاب حقّه ، وتكشف عن جوانبه الغضة ، التي أتاح لي فضلُ الدارسين الاشتغالَ بها ، والاجتهادَ في تبيانها .

ولقد حرصت على أن يأتي عنوان الدراسة معبّرا عن مضمونها تعبيرا واضحا ، فاخترت كلمة " البيان " بمعناها العام ، الذي يحمل معنى البلاغة ، أو فنّ القول ، ولا أعني بها علم البيان ، ذلك المفهوم الذي حدّده البلاغيون بقولهم : " هو إبراز المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه " (٢) فإنّ هذا المفهوم يقصر عن مسائل سأعرض لها في دراستي هذه ، ثم للعَوْد بكلمة " البيان " إلى مفهومها الرحب الأشمل الذي بيّنه القرآن الكريم ، وأظهره الحديث الشريف . (٣)

وقد اشتملت الدراسة على هذه المقدّمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول : فأما التمهيد فقد تحدّثت فيه عن صلة المعجم بالدراسة البلاغية ، والغرض من تأليف الأساس ، ومنهجه وقيمته .

وأما الفصل الأول ، فعرضت فيه للموارد البلاغية لأساس البلاغة موزّعة بين القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والشعر ، وكلام الأعراب .

---

(١) انظر المعجم العربي نشأته وتطوره ، د . حسين نصّار ، ج ٢ ص ٦٩٧-٧٠٨ ، دار مصر للطباعة ، ١٩٦٨ .

(٢) التلخيص في علوم البلاغة ، محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب (-٧٣٩هـ) ص ٢٣٥ ضبطه وشرحه ، عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٣٢م .

(٣) وقد سبقني إلى هذا الفهم غير واحد من الباحثين منهم :
أ - الاستاذ أمين الخولي في " فن القول " ص ٧٧ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .
ب - د . بدوي طبانة في " البيان العربي " ص ٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
جـ - د . كامل حسن البصير في " بناء الصورة الفنية في البيان العربي " ص ١٢ ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا الفصل الثاني ،فعرضت فيه لمنهج الزمخشري في أساس البلاغة فتحدّثت عن العبارة في أساس البلاغة ،ومنهج الأساس، وفنّي : التعكيس، ومجاز المجاز .

وأمّا الفصل الثالث،فقد أقمت فيه حديثا مطوّلا في مسائل المعاني والبيان ، والبديع،ثم أتبعت ذلك بخاتمة تلخّص ما شتّ من مسائل الدراسة ،ثم قائمةٍ بأهمّ المصادر والمراجع التي أفدتُ منها .

هذا وقد جاء تقسيم الفصول التي تتألّف منها الدراسة ،تقسيما مقصودا،إذ جعلتُ الفصلين : الأوّل ،والثاني بمثابة مقدّمات للفصل الثالث الذى اشتمل على مسائل البيان الواردة في الأساس،وكان ممّا دفعني إلى ذلك أنّ طبيعة الدرس البلاغي قد لا يتّفق لها - دائما - أن تأتي فصولها مُقسّمة حسب نَسَقٍ مُتساوٍ في صفحاته ،كذلك كان شأنها عند البلاغيين من قبل ، فقد كانت كتبهم تتوزّع في فصول صفحاتُها قليلةٌ جدّا ، وفي فصول أخرى تقع في صفحات كثيرة ،وهكذا أجدني مطمئنا الى هذا التقسيم ،الذى أوحى به اليّ أستاذى المشرف،فكان لا بدّ من الاعتراف بفضله ،وسداد رأيه .

وقد كُنتُ أختار مسائل البلاغة من أساس البلاغة ،وفق أساسين اثنين : أولهما ، تصريح الزمخشري بالمسألة ،أو المصطلح البلاغي ،أو ما يقرب من ذلك ،كأن يشير إلى قيمة بيانيّة، أو نكتة يجدها في شواهده ،وثانيهما ما تظاهرت الشواهد على إبرازه ،فكلّما كثرت الشواهد ،لتدلّ على مسألة بيانية كان ذلك - عندى - سببا في جعلها موضعا للنظر والدراسة ،وكان يهمّني من كلّ مسألة أنْ أجدَ لها موقعا في الأساس،فأعمل على وصفها كما جاءت فيه ،ثم تعريفها - سواء أكان ذلك من الأساس نفسه، أم من سواه - ثم أنظر رأى الزمخشري فيها ،فأعرضه ،وقد أعرض لآراء البلاغيين ،في المسألة ذاتها ،ولا أقف عند هذا ،بل ربّما أختار شواهد أدبيّة من الأساس ،فأحلّلها،وأقدّمها دليلا لِما كنتُ أذهبُ إليه ،متى دعت الحاجة إلى ذلك. ولقد قرنتُ في مسائل كثيرة قولَ الزمخشري بأقوال عبد القاهر الجرجاني الذى كان أثره واضحا فيما جاء به الزمخشري في أساسه .

وأمّا مصادر الدراسة ، فقد تنوّعت ،وتوزّعت بين القديم والحديث فأفادت ممّا كتبه القدماء أمثال الجاحظ (-٢٥٥هـ) وأبي هلال العسكرى (-٣٩٥هـ) وعبد القاهر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجرجاني (-٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) ومما كتبه الزمخشريّ نفسه في غير الأساس ، مثل المستقصى في أمثال العرب ،والمقامات ،والفائق في غريب الحديث ،والمفصّل في علم العربية ،والدّرر الدائر المنتخب ،وكذلك مَنْ جاء بعد الزمخشري أمثال السكاكي (-٦٢٦هـ) والقزويني (-٧٣٩هـ) والعلوي (-٧٤٩هـ) وقد أفاد البحث مما كتبه كثير من المحدثين .

وأما الكتب التي أفاض البحث في الاستقاء منها ،فكان على رأسها أساس البلاغة موطن الدراسة ،إذ تسنّم ذروة المصادر ،وكان زعيما بما يُلجأ إليه في توضيح المسائل وإن يكن قد قصّر في بعضها ؛ وذلك لكونه معجما لغويا مختصراً اختصارا شديدا ، ركّز فيه مؤلّفه عنايته على جمع العبارات البليغة ،ولم يلجأ إلى التنظير ، أو تمحيص المسائل تمحيصا دقيقا ،فكانت الحاجة إلى قراءة الكتاب مرّات كثيرة ماسّةً حتى يستطيع الناظر فيه أن يقع على بعض ما يتوخّاه من مصطلحات ،أو إشارات ،تهدي إلى تفسير المسألة ،أو الكشف عنها ، ولذلك كان العمل في أساس البلاغة عسيرا وحذرا ،ويحتاج إلى جهد كبير في إثارة المسائل دون تكلّف في عرضها ، أو انتقاء ما صحّ منها . وقد اعتمدتُ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ،لأنها أكثر طبعات الأساس دقّة ،ووضوحا بيد أنني كنت أرجع في بعض المسائل إلى طبعة دار المعرفة في بيروت ، فقد ضمّنت الأساسَ مقدّمةً قيّمةً للأستاذ أمين الخولي ،فإذا ما وقع النظر في الحاشية على أساس البلاغة مُجرّدا ،كان المقصود طبعة الهيئة المصرية ، وإنْ ذُكرت معه دار المعرفة ، فإنّ المقصود هو طبعة هذه الدار .

وأما الكتب الأخرى التي أفادت منها الدراسة فائدة عظيمة . فكان من أهمّها تفسير الكشّاف للزمخشري ،وكتابا الإمام عبد القاهر الجرجاني : " دلائل الإعجاز " و "أسرار البلاغة " ثم كتاب " البلاغة القرآنية في تفسير الكشّاف للزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية " تأليف الدكتور محمد محمد أبو موسى ،فإنّ هذه الكتب الأربعة ،كانت ذاتَ أهميّةٍ بارزةٍ في الكشف عن مسائلَ كثيرةٍ وقعتُ عليها في الأساس، وكانت عونا كبيرا لي في تعريفها ،وتوثيقِ معناها ،ورسمِ حدودها ،وتفصيلِ ما أوجزه الزمخشري في أساسه ،وما أومأ إليه إيماءً لا يكفي في إظهار المسألة ،وتجليتها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد فإنّه لا يسعني إلّا أن أتقدّم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف - الأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي - لِما قدّمه لي من توجيهات مفيدة ، ونصائح سديدة ، فجزاه الله عنّي كلّ خير ، كما أتقدّم بالشكر لأستاذيّ الكريمين : الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن ، والدكتور عبد الجليل عبد المهدي لتفضّلهما بمناقشة هذه الرسالة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ١ -

صلة المعجم بالدراسات البلاغية

لا يقف عمل المعجم اللغوي عند جمع ألفاظ اللغة، وسردها سردا مجرّدا منقطعا عن الاستعمال، بل إنه ظاهرة لغويّة مؤثّرة في استجلاء النصوص الأدبية، ولا غنى لأيّ كاتب أو شاعر عنه. وإنّ ثمّة تشابُهاً واضحا بين شارح النصّ الأدبي، وشارح المفردة في المعجم. فشارح النصّ الأدبي، لا يقوى على فهم المفردة إلّا حين يرجع إلى النصّ مُجتمِعا ثم ينظر إلى المفردة من خلاله؛ حتى يستبين له المعنى الذي ترمي إليه، كذلك فإنّ شارح المفردة في المعجم لا يستطيع أن يكشف عن معناها، إلّا حين تنتظم في سياق من التعبير. (١)

وحقّا أنّ للكلمة معنى أصليّا يذكره المعجم، لكنّ هذا المعنى لا يكاد يتمالك حين يأتي المعجميّ بشاهد، أو أكثر، على معنى هذه الكلمة؛ لأنّها حين تتّسق في نظام مُعيّن من الكلام، ما عادت تحمل المعنى ذاته الذي كانت تحمله، وهي لا تَتّصِلُ إلى السياق بصلة.

وعندما تأتلف اللفظة في سياق أو أكثر، فإنّها تبدأ حياة جديدة تنقلها من معناها العام إلى معاني شتّى، ودلالات يرسمها السياق الذي ينتظمها، ويمنحها من المعاني، ما لم تكن قادرة على منحه، لو أنّها بقيت مفردةً في ثنايا المعجم.

وحين تتوزّع دلالات الكلمة، حسب النسق الذي وردت فيه، فإنّ عنصر المقال الذي يُعتمد عليه في شرحِها، لا يكون وحدَه الذي يكشف عن معناها، وإنّما يظلّ مُفتقِرا إلى عنصر آخر يستعين به على فهمها، لأنّ الكلمة غدت تؤلّف - بمصاحبة غيرها من الكلمات - صورا أخرى، ومعاني أخرى لا يجلوها الّا هذا العنصر، ألا وهو المقام الاجتماعي " وهو الوجه الذي تتمثّل فيه العلاقات والأحداث، والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال ". (٢)

---

(١) انظر " العمل المعجمي بين علوم اللغة العربية " ، د. عبد الرازق محي الدين ص٣، مقالة في مجلة المجمع العلمي العراقي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس عشر، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، ص٣٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر ١٩٧٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك يكون المعجم دليلا حيّا ،على المجتمع الذى يحمل صورته في كلماتـــــه ؛ إذ إنّ الدلالةالتي تكتسب من المقام الاجتماعي ، تعود بنا الى أصل الكلمة ،وتتبّـــع مراحلها التي مرّت بها عبر العصور، ومن ثمّ يتبدّى أثر المعجم بمواكبته الاستعمـــالَ اللغوى ، " وما يفرزه من تطوّر في الدلالة بتأثير التطوّر الاجتماعي والاقتصادى والسياسيّ ".(١) ولهذا فقد ذهب بعض الباحثين إلى عدم التفريق بين الدلالة المعجمية ،والدلالـــة الاجتماعية ،وجعلهما في معنى واحـــد .(٢)

مما تقدّم ،ندرك مدى العلاقة التي تربط بين المعجم اللغوى ،والبيان ،فالمعجم يقدّم المفردة التي يؤلّف منها الأديب عمله ،والمفردة - وحدها - تقوم بدور هام فـــي إعداد النفس، وإثارة الانفعال فيها ،لكنّها تكون أكثر عمقا وتأثيرا إذا انتسقت فـــي تركيب يكشف عن معناها ،وعن قدرتها الإيحائيّة ،وتأثيرها النفسي الذى يُعدّ معيـــار " تقديرها الأدبي ،ووسيلة تقويم النظم الفـنّي ". (٣)

ثمّ إنّنا حين نحتفل بدلالة اللفظ ،إنّما نحتفل بالمجاز الذى هو أســـــاس البيان ،ذلك أنّ ذكر المعنى الأصلي للمفردة ،ثم ذكر المعنى الدلالي لها ،إنْ هـــو إلاّ انتقال بها من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازى ،وهذا ما يختصّ بتتبّعـــه معجم التوسّع الدلالي الذى " يُعنى برصد ما يطرأ على الدلالة من توسّع، وتطوّر، ينقلها من طور الدلالة الحقيقية ،إلى طور الدلالة المجازيـــة . " (٤)

وينبغي التنبّه إلى أنّ الدراسة اللغوية للنصوص المجازية ،كانت أسبقَ مـــن الدراسة الاصطلاحية ،وكانت في بدايتها تسير جنبا إلى جنب مع الدراسة اللغويـــة ، ولكنّها كانت على هيئة شذرات مبثوثة هنا وهناك " ولمّا كثرت هذه الشذرات ،ووصلـت إلى الحدّ الذى تتطلّب معه الاستقلال ،أخذت العلوم البيانية بالاستقلال شيئا فشيئا ".(٥)

---

(١) المعجم العربي ،د .رياض زكي قاسم ص٢٤ ،دار المعرفة ،بيروت ،لبنان ،١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . ط١ .

(٢) دلالة الالفاظ ،د .إبراهيم أنيس ص٥١ مكتبة الانجلو المصرية ،١٩٨٤ ،ط ٥ .

(٣) أساس البلاغة ص ط ،طبعة دار المعرفة ،بيروت ،لبنان ،١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٤) المجاز وأثره في الدرس اللغوى " كلمة ومنهج "،د . محمد بدرى عبد الجليـل ، دار الجامعات المصرية ،اسكندرية ،١٩٧٥م .

(٥) المجاز في البلاغة العربية ،د .مهدى صالح السامرائي ص٦٢ ،دار العودة ،حماة سورية ،١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م . ط ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سبق أنْ أشرتُ إلى أنّ فهم الدلالة المجازية ، ليس مقصورا على شـــرح المفردة ،بل لا بدّ من معرفة المقام الذى وردت فيه . إنّ فكرة المقال والمقام هذه فكـرة قديمة ،كانت - وما تزال - تجرى على ألسنة الأدباء ،والبلاغيين العرب الذين جعلـوا البلاغة في الكلام هي :" مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . "(١) فلقد أدركـوا أنّ الكلام لا يكون بليغا ،ومؤثرا في النفس إلاّ حين يراعي المتكلّم حال المخاطب، لكـي يحدث في نفسه الانفعال اللازم ،والاستجابة الشعورية وهو ما " ينسجم مع نظرتهـم للفن القولي بعامّة ، وفهمهم الدور النفسي الذى يتمثّل في وجوب مطابقته لمقتضـى حال الخطـاب . " (٢)

ولقد وقف الدكتور تمام حسّان في كتابه " اللغة العربية معناها ومبناها " علـى الدور المعجمي الذى يمكن أن يقوم به علم البيان ،فهو يرى " أنّ العناية في علم البيـان إذ تتّجه إلى دراسة اللفظ في دلالته على معناه الحرفي " المطابقي " أو للدلالة علـى " بعض معناه " أو على " لازم معناه " تجعل علم البيان قمة علم المعجم كما كان علـم المعاني ،قمّة علم النحو، ومن هنا يصبح علم البيان في إطار الثقافة العربية هـو النظرية الوحيدة التي تصلح نواة ،لفرس علم جديد في تربة هذه الثقافة يسمّى علـم المعجـم " (٣) . ويرى الدكتور تمام أنّ علم البيان هذا " يتناول بالدراسة ،والتحليل والنقد والتأريخ ، والمقارنة ،تلك الطرق والمناهج التي استخدمها المعجميون العـرب في جميع معاجمهم موصيا بأحسن الطرق التي وصلت اليها المناهج العلمية في هذا المجال في مختلف لغات العالم)"(٤) . ويقول :"ولعلّ لفظ " البيان "ومعناه " الشرح "يذكّرنـا بأنّ عمل المعاجم هو بيان دلالة الألفاظ واختلاف هذه الدلالة بحسب الاستعمال "(٥). ثم ذهب الدكتور تمام يفصّل ما أجمله في مواضع أخرى من كتابـــه " (٦) .

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٣ .
(٢) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ،د . مجيد عبد الحميد ناجي ،ص ٧٦ ، المؤسسة الجامعية ،بيروت ،لبنان ،١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م . ط ١ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٩ .
(٤) السابق ص ٢٠ .
(٥) نفسه ص ٢٠ .
(٦) نفسه ص ٣١٩ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٢ -
الغرض من تأليف الأساس

لقد كان الزمخشري يبتغي من تأليفه أساس البلاغة أغراضا جليلة، لعلّ أولها وأعلاها، هو توضيح وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وثانيها: تربية الملكة البيانية عند ذوي القرائح الصحيحة، وثالثها: تمييز الحقيقة من المجاز، ثم تنبيه أصحاب المعاجم إلى الاهتمام بالكتابة البيانية في معاجمهم. وقد بيّن ذلك الزمخشري في مقدّمته، إذ يرى أنّ القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تفرّد من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة، " وكان الموفّق من العلماء، والأعلام، أنصار ملّة الاسلام، الذابّين عن بيضة الحنيفية البيضاء، المبرهنين على ما كان من العرب العرباء حين تحدّوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم، والفزع الى المقارعة بأسنّة أسلهم، ممّن كانت مطامح نظره، ومطارح فكره الجهات التي توصل إلى تبيّن مراسم البلغاء، والمشور على مناظم الفصحاء، والمغايرة بين متداولات ألفاظهم، ومتعاورات أقوالهم، والمغايرة بين ما انتقوا منها، وانتخلوا، وما انتفوا عنه فلم يتقبّلوا، وما استركّوا واستنزلوا، واستخصوا، واستجزلوا، والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الاعجاز أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف، حتّى يكون صدر يقينه أثلج، وسهم احتجاجه أفلج، وحتّى يقال: هو من علم البيان حظي، وفهمه فيه حاظي." (١)

يُفهم من هذا أنّ تتبّع مراسم البلغاء، والوقوف على أقوال الفصحاء من العرب، وما احتفلوا به وتفنّنوا، هو الطريق الذي يؤدّي إلى التعرّف على وجوه الإعجاز البياني في القرآن، ومن ثمّ يكون المحصّل لهذا كلّه أكثر اطمئنانا إلى إعجازه، وأقوى حجّة على كلّ مَن يعرض للقرآن الكريم بسوء؛ ولذلك يكثر الزمخشري من الشواهد العالية في أساسه، لأنّ الذي يمتثلها، ويحفظها، ويحاكيها، لا بدّ أن يبلغ المنزلة الرفيعة في بيانه، وقد تصله ذات يوم بالجاحظ وأدبه. وذلك ما صرّح به الزمخشري حين ذكر خصائص الكتاب ثم قال: " فمن حصّل هذه الخصائص، وكان له حظّ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها، ومعيار حكمة الواضع وقسطاسها،

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥. ط ٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأصاب ذروا من علم المعاني ، وحظي برش من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك كلّـــه ، قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة ، فَحُلَ نثره ، وجزل شعره ، ولم يطل عليه أن يناهز المقدّمين ويخاطر المقرمـــين . " (١)

وقد ميّز الزمخشري في أساسه المعاني الحقيقية من المعاني المجازية ، وأشـــار إلى هذا التمييز في مقدّمته ، وكان ممّا حفزه عليه ، أنّ مؤلّفي المعاجم اللغوية قـــد عنوا بجمع ألفاظ اللغة ، وضبطها ، والاستشهاد لها فأراد هو أن يسلك سبيلا آخـــر يفصل فيه بين الحقيقة والمجاز . (٢) ويذهب الدكتور وليد قصّاب إلى أنّ الزمخشري حاول في معجمه هذا " أن يقوم بتحقيق علمي يثبت فيه أنّ معظم اللغة مجاز . " ، خدمة لآرائه الاعتزالية ، ودفاعا عن آراء المعتزلة ومعتقداتهم " وحتّى يستقيم لهم توجيـــه الآيات والنصوص التي تخالف هذه العقائد ، فكانوا يحاولون في ضوء التوسّع في استعماله أن يفهموا النصّ القرآني فيما يبعده عن تصوّرات المشبّهة ، والجبرية ، وأهل السنّـــة أحيانـــا . " (٣)

وهـذا أمر ليس بمستبعد عن الزمخشري ، بل إنّه الراجح - عندي - فقد فعلـــه من قبل في تفسيره " الكشّاف " وفعله في كتابه " الدرّ الدائر المنتخب من كنايـــات واستعارات ، وتشبيهات العرب . " (٤) إذ حاول أن يثبت فيه أنّ القرآن قد أنـــزل على العرب بلغتهم ، وفي القرآن - كما في اللغة العربية - مجاز وحقيقة . (٥) وكذلك وجد الأساس ميدانا فسيحا يثبت فيه ذلـــك .

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص ج .
(٢) انظر المعاجم اللغوية ، ابراهيم محمد نجا ص ١٧٩ ، مكتبة السعادة ، مصر ١٩٦٦ .
(٣) التراث النقدي والبلاغي حتى نهاية القرن السادس الهجري ، د . وليد قصـــاب ص ٣٤٦ ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
(٤) تحقيق د . بهيجة الحسني ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
(٥) السابق ص ١٠ وما بعدهـــا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٣ -
ميـــدان الأســـاس

يختلف دارسو الأساس في تحديد الميدان الذى ينتظمه ،إذ إنّ منهم (١) مـــن يضمّه إلى ميدان البلاغة ،والأدب ،وينفي عنه أن يكون معجما لغويا . ومنهم (٢) مـــن ينظر إليه على أنّه معجم لغوى أولا ،ثم إنّ منهم (٣) من يراه كتاب مطالعة وحســـب .

أمّا المذهب الأوّل ،فيمثّله الدكتور حسين نصّار الذى يرى أن " القرن السادس قد شهد اتجاها جديدا في تأليف المعاجم العربية بظهور " أساس البلاغة " وأنّ هذا الاتجاه يظهر أول ما " يظهر في عنوان الكتاب نفسه ، فهو ليس بمحيط ، ولا صحيـــح ، ولا تهذيب ،ولا بارع باللغة ،وإنّما " أساس البلاغة " وإذن فالميدان تحوّل من اللغـــة إلى البلاغة ،وسبب هذا التحوّل واضح هو القرآن كتاب العربية الاعظم ." ، ولذلـــك " يجمل بالمرء النظر إلى أساس البلاغة على أنّه معجم خاصّ في التعبير العربي ،وبالعبارة المؤلّفة البليغة لا معجم للألفاظ فيُوضع الكتاب موضعه اللائق به ، ويُقدّر حقّ قـــدره ، ويُنسب الى مؤلّفه فضل توجيه حركة المعاجم إلى العبارات الأدبية البليغة ، بـــدلا من الاقتصار على الالفاظ المفـــردة " . (٤)

وأمّا المذهب الثاني ،فيمثّله الأستاذ مرتضى الشيرازى الذى ينظر إلى الأســـاس " أولا باعتباره معجما لغويا يتحدّث عن معاني المفردات والتراكيب " . ويـــرى أنّ الجانب الأدبي من الأساس " ليس مقصودا لذاته ،إنما المقصود هو شرح المعانـــي اللغوية" . (٥) فالجانب اللغوى " هو الذى يعني الباحثين والقارئين " وهو الهدف من تأليفه ،أمّا الجانب البلاغي فهو - عنده - " كالجانب الأدبي يجيء في المنزلة التالية من منهج الكتاب اللغـــوى . " (٦)

---

(١) المعاجم العربية المجنسة ،د . محمد عبد الحفيظ العريان ،دار المسلم للطباعة والنشر والتوزيع ،مصر ،١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
(٢) مثل د . محمد بدرى عبد الجليل في كتابه المجاز وأثره في الدرس اللغوى ص ١٧٥
(٣) مثل محمد دياب في تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص٤٩ ،مطبعة الترقي ،مصـــر ، ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م .
(٤) المعجم العربي نشأته وتطوره . حسين نصار ج ٢ ص ٦٩٠ .
(٥) الزمخشرى لغويا ومفسرا ،مرتضى الشيرازى ص٢٦٦ ،دار الثقافة للطباعة والنشـــر ، القاهرة ،١٩٧٧ .
(٦) نفسه ص٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا المذهب الثالث فيمثّله محمد دياب، إذ يرى أنّ اقتصار الزمخشري على " وضع الكلمات في التراكيب دون ذكر معانيها صراحا اعتمادا على فهم المطالع واستنباطه، معنى الكلمة من الجملة " يُعدّ مسوّغا لجعل أساس البلاغة " كتاب مطالعة لا مراجعة " . (١)

ويبدو أنّ الخروج برأي حاسم في هذا الموضوع، وعلى النحو الذي سلكه هؤلاء الباحثون، أمر يصعب تحقيقه، ذلك أنّ الأساس كيفما أردناه وجدناه، فإنْ أردناه معجما لغويا فهو كذلك، لأنّه يبحث في معاني الكلمات، ويشرحها في تراكيب حيّة ويبحث في دلالة الألفاظ، وتطوّرها التاريخي، وغير ذلك ممّا نجده في المعجم اللغوي، وإنْ ألفيناه معجما أدبيا أو بلاغيا فهو كذلك، لأنّه يهتمّ بإيحاء الكلمة، وأثرها في فنّ القول، ويذكر مصطلحات بلاغية ويبيّنها، ويعمل على تربية الذوق البلاغي عند قرّائه من خلال شواهده الكثيرة، والمتميّزة، وهو كتاب مطالعة يحسّ القارئ حين يقرؤه بمتعة ورغبة في الاستمرار، ثمّ إنّه مفيد في التعرّف على أساليب البيان، ويُرجع إليه في معرفة معاني المفردات، ومدلولاتها، ولذلك كان هذا الكتاب شريف الإفادة كما ذكر ابن خلدون في مقدّمته . (٢)

ولعلّ السبب الذي أدّى بهؤلاء الباحثين إلى هذا الاختلاف هو محاولة الفصل الدقيق بين المعجم اللغوي، ووظيفته في الحياة الأدبية . وذلك ما يعسر على الباحث القيام به، لأنّ ثمة تداخلا بيّنا، وارتباطا وثيقا بينهما، ممّا يجعل هذا الفصل على النحو الذي رأيناه، أمرا لا يمكن تصوّره .

وهناك سبب آخر، هو أنّه ربّما نظر بعضهم إلى عنوان الكتاب فرأوه يختلف عن بقيّة العناوين التي تحملها المعاجم اللغوية الأخرى، ثمّ نظروا إلى غرض المؤلّف منه، فوجدوه كذلك يختلف عن أغراض مؤلّفي المعاجم اللغوية، وحين استخدم الزمخشري

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٤٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ج ٣ ص ١٢٧١، تحقيق د . علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التراكيب في عرض مفرداته ، والتزم ذلك في الكتاب كلّه ، وكان متفرّدا فيه قال مَنْ قال : إنّه معجم بلاغة وأدب ، لا معجم لغة وألفاظ . ثم حين نظر بعضهم إلى الترتيب الذى انتهجه الزمخشرى في أساسه ، والطريقة التي سار عليها في شرح مفرداته ، وما تضمّنه من صيغ اشتقاقية ، وتوجيهات نحويّة ، قالوا : إنّه معجم لغوى ؛ ولأنّ الزمخشرى لم يُصرّح بمعاني المفردات ، وإنّما اختار لها التراكيب التي تنبّه الى معناها ، ولا تصرّح به ، قال بعضهم : إنّه كتاب مطالعة لا كتاب مراجعة .

ولو أنّهم اقتصروا على ما اقتصر عليه الزمخشرى ، لَما اختلفوا كلّ هذا الاختلاف فقد اكتفى الزمخشرى بذكر عنوان الكتاب ، والتقديم له بما يراه مناسبا ، ثم انصرف الى المادّة نفسها ، وتركها تعلن عن ذاتها ، وإن بدا من عنوان الكتاب وغرضه ، وطريقة عرضه للمادّة أنّه يُؤثِر الجانب البلاغي ولكنّ الكتاب نفسه ، بمنهجه ، وشرحه للمادّة اللغويّة ، وتتبّعه لدلالة اللفظ ، وما إلى ذلك ، يُبرزه معجما لغويّا ظاهرا .

٣٨٦٥٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٤ -
قيمـــة الأســـــاس

وقف الزمخشري في مقدّمة الأساس ،على الخصائص التي يمتاز بها أساس البلاغة ، وهي - عنده - كثيرة منها : " تخيّر ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحـــت استعمالات المفلقين ،أو ما جاز وقوعه فيها ،وانطواؤه تحتها من التراكيب التي تطلـــح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن ،لجريها رسلات على الأسلات ،ومرورها عذبات علـــى العذبات ،ومنها التوقيف على مناهج التركيب ،والتأليف ،وتعريف مدارج الترتيب والترصيف بسوق الكلمات متناسقة ،لا مرسلة بددا ،ومتناظمة ،لا طرائق قددا ، مع الاستكثار مـــن نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حرّ المنطق ،الدالّة على ضالّة المنطيق المغلق . ومنهـا ، تأسيس قوانين فصل الخطاب ،والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة ، والكنايـة عـن التصريـــح . " (١)

هذا وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنّ قيمة الأساس ترجع في حقيقتها إلى أنّـه " يقدّم لنا عن دلالة الكلمة عنصرين من العناصر التي يهتمّ بها فنّ القول في تحديـــد هذه الدلالة ،وأوّل هذين العنصرين :هو أثر الاستعمال في حياة الكلمة،وتعيين دلالتها وتحديد معناها ، وثاني العنصرين:" هو شيء عن إيحاء الكلمة ووقعها في نفـــس سامعها " (٢).وذهب بعضهم إلى أنّ قيمة الأساس تنبع من كونه يفصل بين الحقيقـة والمجاز ،ويهتمّ بدلالة اللفظ العربي (٣) . ومنهم مَنْ يذهب إلى أبعد من هـــذا ، فيجعل من الأساس وثيقة فريدة تُعطينا كثيرا من الدلالات على التطور التاريخـــي للألفاظ العربية ،ويجعله الأساس لبعض المعاجم الحديثة التي ألّفها المستشرقون "(٤). ومنهم مَنْ يرى أنّ الأساس " هو المعجم الوحيد الذي اهتم بالتعبيرات الاصطلاحيـة" فهو ليس معجما للكلمات المفردة ،بل للتراكيب والعبارات "(٥) ويرجع بعضهم قيمتـــه

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص د .
(٢) أساس البلاغة ،دار المعرفة ،ص ط .
(٣) فصول في اللغة ،د . رمضان عبد التواب ص٢٨٢ ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،١٩٨٠ .
(٤) الزمخشري لغويّا ومفسّرا ص ٢٧١ .
(٥) التعبير الاصطلاحي ،د .زكي حسام الدين ص١٥٨ ،مكتبة الانجلوالمصرية ،١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى اختصار مؤلّفه في الشرح " وعدم اعتماده على غيره في عبارته ،ممّا جعل لشخصيّته كيانا مستقلا "(١) ،أو لائه باستكثاره من الشواهد الأدبية ،وإشارته إلى مسائل بلاغية ،دون تفصيل ،يكون بذلك قد ابتدع طريقة عملية في تربية الملكة الفنيّة ، ومن ثمّ كانت قيمته .(٢)

وهكذا فإنّ قيمة الأساس تتوزّع عناصرها عند الباحثين ،إذ إنّ كلّا منهم ينظر إلى الجهة التي كان فيها الأساس أثبت ،وأظهر ،وهم يتفاوتون في تقدير هذه القيمة التي تتمثّل -عندى - في كلّ ما ذكروه ،وإنّما نهضتُ في دراستي هذه ،لأقف على هذه الأوجه البارزة التي تختبئ وراءها عناصرٌ أخرى ، عسى أنْ أوفّق في الكشف عنها .

---

(١) المعاجم اللغوية ،ابراهيم نحا ص ١٨٤ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للزمخشري ،د . محمد محمد أبو موسى ص ٨٠ ، مكتبة وهبة ،القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المـــوارد البلاغيـة لأســاس البلاغيـــــة

يشير الزمخشري في مقدّمة الأساس إلى المصادر التي استقى منها مادّتـــــه ، ولكنّه لا يحدّدها تحديدا دقيقا ، ولا يفصّل القول فيها ؛ لغرض أراده ، سنتبيّنه فـــي الحديث عن العبارة في الأســـاس .

إنّ مصادر الأساس البيانية كثيرة ، ومتنوّعة ، ولكنّها تعود - في معظمها - إلـــى ما روى عن العرب الفصحاء من شعر ونثر ، إذ هي " متّا قُليت له العربية وما ملح مـن بلاغاتها ، وما سمع من الأعراب في بواديها ، ومن خطباء الحلل في نواديها ، ومن قراضبة(١) نجد في أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة في أسواقها ، ومجامعها ، وما تزاجـــرت به السقاة على أفواه قلبهـا (٢) ، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها (٣) ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم ، في ساعات المماتنة (٤) ، وما تزاملت به سفراء ثقيف ، وهذيل في أيـــام المفاتنة ، وما طولع في بطون الكتب ، ومتون الدفاتر ، من روائع ألفاظ مفتّنة ، وجوامـــع كلم في أحشائها مجتنّـــة . " (٥)

تلك هي مصادر الأساس التي يعتمد عليها الزمخشري في إظهار مسائـــــل البلاغة ، وهي مصادر أدبية ، تعمل على الارتفاع بالذوق البياني ، وتحقّق غرض المؤلّف من تأليف الأســاس .

---

(١) جمع قرضوب ، وهم الصعاليك واللصوص .
(٢) القلب : الابار ، واحدها قليب .
(٣) العلب : جمع علبة ، وهي قدح ضخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيـه .
(٤) المماتنة : المغالبة في المتانة . أي أن يصرّ كل واحد منهم أن شعره أمتن .
(٥) أساس البلاغة ج ١ ص د .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ١ -
القـــرآن الكريـــم

إنّ من أهمّ الأغراض التي أُلّف من أجلها الأساس هو تبيّن وجوه الإعجـــاز البياني في القرآن الكريم ، ويرى الزمخشري أنّ ذلك لا يتحقّق إلّا بالوقوف على أقـــوال الفصحاء ، والبلغاء ، وما تكلّمت به العرب من شعر ونثر ، فكان أن جمع في أساســـه عبارات كثيرة ، وأشعارا جمّة ، وأحاديث وافيـــة .

وعلى الرغم من ذلك فقد أتى الزمخشري في الأساس بكثير من الآيات القرآنيـــة . ولعلّه قد فعل هذا ؛ لكي يعرّف أولا بالمادّة اللغوية في الأساس فإنّ القرآن الكريـــم يُعدّ المصدر الأوّل الذي يُعتمد عليه في ذلك . وثانيا ؛ لكي يضع الآيات القرآنيـــة في نسق واحد مع الشواهد الأخرى ؛ ليحقق بذلك فكرة الإعجاز ؛ لأنّ تفوّق البيان القرآني سيبدو واضحا ، وثالثا ؛ لكي يقف الكتّاب على وجوه الإعجاز البياني في القرآن ، والنظـــر في أسباب التفوّق البياني هذا ، والبحث عن دقائقه ، ومن ثمّ العمل على حفظها ، والسير على هديها في الكتابات الأدبيـــة .

فلم يقم الزمخشري في أساسه بتبيان البلاغة القرآنية صراحا ، كما كان يفعـــل في الكشّاف ، فقد وقف فيه على مسائل بلاغية من خلال شواهد القرآن الكريم ، وكان يجعلها مثالا على ما يصرّح به من مسائل ولفتات ، ولكنّه اكتفى في أساسه ببسط الشواهـــد الأدبية ، بسطا دون استخراج ، أو تعمّق في التعرّف إلى أسرارها البيانية ؛ وذلـــك ليجعل من هذه الشواهد جسرا يصل الأدباء والقرّاء بمواطن الجمال في البيان القرآني لأنّ كثرة التمرّس على حفظ الشواهد ، وتلمّس مواطن البلاغة فيها يؤدّي إلى صقـــل الذوق الفني ، فيقترب صاحبه بهذا من فهم الإعجاز البياني في القرآن الكريـــم وتذوّقـــه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٢ -
الحديث النبوي

يكثر الزمخشري في أساسه من الأحاديث الشريفة ،إذ هي المصدر الثاني - بعد القرآن الكريم - من مصادر البيان العربي .

ولا يُعنى الزمخشري - كثيرا - بتمييز الأحاديث من غيرها ،وإنما يأتي بها - في الأغلب - دون إشارة إلى أنها من كلام النبي عليه السلام ، ومثال ذلك ما نجده في مادّة " ب و ق " : " أصابته بائقة وبوائق ، وهو كثير البوائق : أي الشرور و(لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه) (١) وفلان يعمل البوائق : وهي عظام الذنوب. " وكذلك ما نجده في مادّة " ب ي ع " : " باعه الشيء وباعه منه ،وباع عليه القاضي ضيعته . (ولا يبع أحدكم على بيع أخيه) (٢) وهذا المتاع لا يبتاع ،ونعم المتاع ،بئس المبتاع واستباعه عبده (والبيّعان بالخيار) (٣) أي البائع والمشتري . "

ومما ينبغي التنبّه إليه أنّ الزمخشري لا يعني بالحديث في أساسه ما أُضيف إلى النبي وحده - بل إنه قد يشتمل - عنده في الأساس - ما أضيف إلى أصحابه أيضا ،حتّى لقد يختلط ذلك على الناظر في الأساس ،فلا يكاد يميز كلام النبي عليه السلام - من سواه . وقد وقع هذا في أحاديث كثيرة منها ما جاء في مادّة " أ ش ب " : " والأشب شدّة التفاف الشجر حتى لا مجاز فيه ،ومنه الحديث : (بيني وبينك أشب)" فهذا الحديث يوهم أنّه مما قاله النبي عليه السلام ، ولكنّه لصحابي قاله للنبي في رواية تذكرها كتب الحديث (٤) . وكذلك الحديث في مادّة " ق و ل " " وقوّلتني ما لم أقل . وفي الحديث (ما قالته لكن قولته)" فهو لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وليس للنبي عليه السلام (٥) .

---

(١) انظر الحديث في كتاب الفائق ،للزمخشري (-٥٣٨هـ) ،تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد ابوالفضل ابراهيم ،عيسى البابي الحلبي وشركاه ،ط٢ . ج١ ص١٢٢

(٢) انظر الحديث في كتاب النهاية في غريب الحديث ،ابن الاثير (-٦٠٦هـ) ج ١ ص ١٧٣ ،تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناجي ،المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ .

(٣) السابق ج ١ ص ١٧٣ .

(٤) انظر مثلا - الفائق ج ١ ص ٤٦ .

(٥) السابق ج ١ ص ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيرا ما كان الزمخشري يقتضب الأحاديث اقتضابا ، دون أن يذكرها كاملة ، أو يوضّح المقام الذي وردت فيه ، بل يأتي أكثرها في سياق تعريفه للمادّة ، فلا يمكن فهم الحديث فهما دقيقا إلّا بالرجوع إليه في كتب الحديث . ومن الأمثلة على ذلك ما ذُكر في مادّة " ت ح ت " : " وفي الحديث (حتّى تهلك الوعول وتظهر التحوت) (١) أي السفلة " . وفي مادّة " ر ق م " : " فلان يلبس الرقم وهو الوشي . وفي الحديث (وما أنا والدنيا والرّقم) " (٢) .

وقد يكتفي الزمخشري بذكر كلمة أو كلمتين من الحديث ، وذلك كما في مادة " ب ر د " : " لا تبرّد عن ظالمك : لا تخفّف عنه بدعائك عليه ، لقوله صلّى الله عليه وسلّم (لا تسبّخي) (٣) " . وفي مادة " ح ت ت " : " حتّى المني ، والدم عن الثوب و (حتّيه ثم اقرصيه) " (٤) وفي مادة " ح ى ض " " وفي الحديث : " تلجّمي وتحيّضي) " (٥) .

---

(١) والحديث كما جاء في الفائق ج ١ ص ١٣٢ " لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن ، وتهلك الوعول وتظهر التحوت ، قالوا : يا رسول الله وما الوعول وما التحوت؟ قال : الوعول : وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت : الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم " .

(٢) والحديث كما جاء في الفائق ج ٢ ص ٧٧ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم " أتى فاطمة عليها السلام ، فوجد على بابها سترا موشّى فلم يدخل ، فاشتدّ عليها ذلك ، فأتاه علي عليه السلام ، فذكر ذلك له ، فقال : وما أنا والدنيا والرقم " .

(٣) والحديث كما جاء في الفائق ج ٢ ص ٢٥٤ أنّ " النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة وسمعها تدعو على سارق : لا تسبّخي عنه بدعائك : أي لا تخفّفي . "

(٤) والحديث كما جاء في الفائق ج ٣ ص ١٧٠١ " قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأمّ قيس بنت محصن في دم الحيض يصيب الثوب : (حتّيه بضلع واقرصيه بماء وسدر . " القرص : القبض على الشيء بأطراف الأصابع مع نتر ، والدم وغيره ما يصيب الثوب إذا قرص كان أذهب للأثر من أن يغسل باليد كلها . "

(٥) والحديث كما جاء في الفائق ج ٣ ص ٢٥٣ " عن حمنة بنت جحش رضي الله عنها أنّها استحيضت فسألت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : " احتشي كرسفا ، فقالت : إنّه أكثر من ذلك إني أثجّ ثجّا قال : تلجّمي وتحيّضي ستّا أو سبعا ثم اغتسلي . " الكرسف والكرسوف : القطع من القطن من الكرسفة ، وهي قطع عرقوب الدابة والكرفسة مثلها . التلجّم : شدّ اللجام ، تحيّضي : أي اقعدي أيّام حيضك ودعي فيها الصلاة والصيام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القيمة البيانية للحديث

لقد أدرك الزمخشري ما يمتاز به الحديث النبوي الشريف من القدرة البيانية العالية، فرآه مقوّما مؤثرا في كتابات المبدعين، ولذلك كان النظر فيه، وحفظه ومحاكاته من أهمّ العوامل التي تساعد على بلوغ هؤلاء الكتّاب أعلى طبقات الكتابة، لأنّ كلام النبي عليه السلام "كلام كلّما زدته فكرا زادك معنى، وتفسيره قريب قريب، كالروح في جسمها البشري، ولكنّه بعيد بعيد كالروح في سرّها الإلهي فهو معك على قدر ما أنت معه إنْ وقفت على حدّ وقف، وإنْ مددت مدّ وما أدّيت به تأدّى." (١)

---

(١) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي ج ٣ ص٩، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٣ -
الشـــــعر

للشعر في أساس البلاغة مكانة عظيمة ، إذ إن في الأساس ما يزيد على خمسة آلاف بيت شعر ، لا يُعنى الزمخشري - كثيرا - بأسماء قائليها ، وإن يكن قد ذكر قسما كبيرا منهم ، وهو لا يقف في شواهده عند عصر الاحتجاج ، بل يتجاوزه الى ما بعده ، فيستشهد بشعر لأبي نواس(١) ، وأبي تمّام(٢) ، والمتنبي(٣) ، وأبي العلاء المعرّي(٤) بل إننا نقع على شعر من تأليف الزمخشري نفسه(٥) .

ولقد قام الأستاذ عرفات عبد الباقي الأشقر بوضع معجم للشعراء المنسوبين في أساس البلاغة ، فلم يهمل أيّ شاهد شعري منسوب فيه ، ثم ترجم للشعراء المغمورين وللبعض الشعراء المشهورين الذين ورد خلاف في أسمائهم وأعصرهم(٦) .

وكان الزمخشري باستكثاره من الشعر في أساسه يبتغي الوقوف على وظيفته في الحياة العربية ، وفي البيان العربي . فقد ظلّ الشعر مستأثرا باهتمام العرب ، ومفضّلا عندهم على غيره من الفنون ، وقد بيّن ذلك صاحب الصناعتين إذ وقف على فضائل الشعر ، وتميّزه من بين سائر فنون الكلام النظم ، فكان من الفضائل التي ذكرها : " طول بقائه على أفواه الرواة ، وامتداد الزمان الطويل به ، وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض ، وهذه خاصّة له في كلّ لغة ، وعند كلّ أمّة . وطول مدّة الشيء من أشرف فضائله " (٧)

---

(١) انظر مثلا مادة " ب غ ى " .
(٢) انظر مادة " ت م هـ ل " ، " ح ر ب " .
(٣) انظر مادة " س ر و " ، " س ع ط " .
(٤) انظر مادة " ن ب ط " .
(٥) انظر مادة " ح ب ل " ، " ن ط ع " .
(٦) انظر ذلك في مجلة " مجمع اللغة العربية الاردني " ، مقال معجم شعراء الأساس العدد ٣٠ ، ص ٢٠١ وما بعدها ، والعدد ٣١ ص ٢١ والعدد ٣٣ ص ٣٠٩ .
(٧) انظر الصناعتين : الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري (-٣٩٥هـ) ص ١٣٧ ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي وشركاه ، مصر ، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الفضائل: " استفاضته في الناس، وبعد سيره في الآفاق، وليس شيء أسير من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال، وقد قيل: لا شيء أسبق الى الأسماع وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيّام من مثل سائر، وشعر نادر." (١)

ومن أفضل فضائل الشعر عند العسكري: " أنّ الفاظ اللغة إنّما يؤخذ جزلها، وفصيحها، وفحلها، وغريبها من الشعر، ومن لم يكن راوية لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته "(٢) ثم إنّنا " لا نعرف أنساب العرب وتواريخها، وأيامها، ومستودع علومها، فإذا كان كذلك فحاجة الكاتب والخطيب، وكلّ متأدب بلغة العرب، أو ناظر في علومها ماسّة، وفاقته إلى روايته شديدة ."(٣)

وقد فنّد الإمام عبد القاهر الجرجاني مزاعم مَنْ يتعصّبون على الشعر ويرونه منبوذا في القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وأظهر الإمام رأيه في ذلك، فهو يرى: " أنّ الجهة التي منها قامت الحجّة بالقرآن وظهرت، وبانت، وبهرت، هي: أنْ كان على حدّ من الفصاحة تقصّر عنه قوى البشر وتُنتهيا إلى غاية لا تُطمع إليها بالفكر، وكان محالا أنْ يعرف كونه كذلك إلّا مَنْ عرف الشعر الذى هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذى لا شكّ أنّه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض."(٤) ويتّهم عبد القاهر الصادّ عن الشعر بأنّه صادّ عن أنْ تُعرف حجّة الله تعالى- القرآن - لأنّ الشعر شاهد يُتوصّل به إلى فهم القرآن الكريم، وبيان إعجازه . (٥)

---

(١) السابق، ص ١٣٧.
(٢) نفسه ص ١٣٧.
(٣) نفسه ص ١٣٧ .
(٤) دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني (-٤٧٤هـ) ص ٨ وما بعدها، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة .
(٥) السابق ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك نتبيّن سبب استكثار الزمخشري من الشعر في أساسه فإنّ في الشعـــر تحقيقا لغرضه من تأليف الأساس من حيث إنّه طريق إلى فهم البيان القرآني ، وتربيـــة للملكة البيانية عند ذوي القرائح الصحيحـــة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٤ -
كـــــلام الأعـــــراب

يعنى الزمخشرى عناية واضحة بكلام الأعراب، فهو يستكثر في أساسه من أقوالهم، ونوادرهم، ويرى فيه معينا لا ينضب من العبارات البليغة والأمثال الصادقة الموجزة، والأقوال الدقيقة المعبّرة .

إنّ كلام الأعراب " رافد ضخم من روافد العربية، ومن أنقاها إذا سلم من شوب الرواية، ومن آصلها إذا جاء على فطرته، من غير تعمّل، ولا صقل، ولا ترتيب. "(١)

ولعلّ من أهم ما يميّز كلام الأعراب - مما أورده الزمخشرى في الأساس - حسن العبارة، وبلاغتها، ودقّة الوصف والتشبيه، والإيجاز، ثم تلك المتعة التي يحدثها في النفوس. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما وقع في مادة " ب ع ج " : " وقال أعرابي : أرض بعجتها العذوات وحفّتها الفلوات فلا يملولح ماؤها، ولا يمعر جنابها " وفي مادة " ج د ل " : " ونظر أعرابي إلى قافلة الحاج متتابعة فقال : أمّا الحاج فقد استقام جدولهم " وفي مادة " ر هـ و " : " ومرّ بأعرابي فالج فقال : سبحان الله رهو(٢) بين سنامين ." وفي مادة " س ب ك " : " أراد أعرابي رقيّ جبل صعب فقال : أى سبيكة هذا، فسمّاه سبيكة لملاحته ". وفي مادة " ز ق ق " أنّه " مات لأعرابي أخ فلم يحضر جنازته، وقال : إنّه كان والله قطّاعا زقّاقا، جرد بيلا : أى يقطع اللقمة بأسنانه، ثم يغمسها في الأدم، ويشرب الماء وفيه الطعام، ويحفظ اللحم بشماله لئلا يأكله غيره " وفي مادة " غ ر ر " رضي أعرابي امرأة فقال : هي الفرّاء بنت المخضة : شبّهها بالزبدة " وفي مادة " م ع ر " سئل أعرابي عن منزله فقال : نزلت بين المجرّة والمعرّة : أراد بين حيّين كثيرى العدد، فشبّههما بهما، لكثرة نجومهما، والمعرّة مكان من السماء في الجهة الشآمية نجومه تكثر وتشتبك، وهو من العرّ كما قيل للسماء الجرباء " وفي مادة " م ل ق " : " قال أعرابي : قاتل الله النساء كيف يمتلقن العلل،

---

(١) مصادر اللغة، د. عبد الحميد الشلقاني ص ١٧٣، مطبعة جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية .

(٢) الرهو : ما اطمأن من الأرض وارتفع ما حوله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكأنها تخرج من تحت أقدامهنّ : أى يستخرجنّها ". وفي مادة " ف و ت " : " سمع أعرابي يقول لآخر: أدن دونك فأبطأ ، فقال : جعل الله رزقك فوت فمك : أى تنظر إليه قدر ما يفوت فمك ولا تقدر عليه " .

تلك بعض الأمثلة النادرة على ما يمتاز به كلام الاعراب. وإننا لنقع على مزيد من ذلك في الأساس نفسه ،وكلّها عبارات تحفل بالروعة والأدب فلا حرم ، أدركنا سبب إعجاب الجاحظ بكلامهم اذ يقول : " إنّه ليس في الارض ،كلام أمتع ،ولا ألذّ في الأسماع ،ولا أشدّ اتصالا بالعقول السليمة ،ولا أفتق للّسان ،ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء ،الفصحاء ،والعلماء البلغاء . " (١)

---

(١) البيان والتبيين ،الجاحظ عمرو بن بحر (- ٢٥٥ هـ) ،تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ،بيروت ،ط٤ . والبيان عند الجاحظ " اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى ،وهتك الحجاب دون الضمير ،حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ،ومن أى جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي يجرى إليها القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام فبأى شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع ."
انظر المصدر السابق ج ١ ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ١ -
العبـارة في أسـاس البلاغـــة

تتألّف أكثر عبارات الأساس من آيات القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريـف . وما ورد عن العرب من المنظوم ، والمنثور . وهذه الشواهد - في جملتها - تكاد تكـون من أجود ما نطق به اللسان العربي ، فقد راعى المؤلّف في اختيارها أن تكون ذات قدرة بيانية عالية ، فكان - بحق - " ممّن لا يقفون إلّا على الالفاظ المتخيّرة ، والمعانـي المنتخبة ، وعلى الالفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبـع المتمكّن ، وعلى السبك الجيّد ، وعلى كلّ كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور غمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للّسان البلاغة ، ودلّت الأقـلام على مدافن الالفـاظ . " (١)

هذا ولم يكن الزمخشري ينبّه على كثير من العبارات في أساسه ، لأنّه " لا يريـد التعريف بحقيقتها ، وإنّما يريد كونها من العبارات الفصيحة فحسب ، بغضّ النظـر عن القائل . وقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، فلم يفسّر كثيرا منها ، ومن الالفاظ ومـن المجازات ، والسبب في ظنّي أنّه لم يرم بكتابه إلى التفسير قدر ما رمى الى جمع العبارات البليغة المشهورة الواضحة لكل انسان ، وغير الواضحة ، فالتفسير غرض يأتي عنده بعـد الجمع والتدويـن . " (٢)

ومع هذا ، فإنّنا نجد الزمخشري ينبّه على قسم غير قليل من عبارات الأسـاس فهل يفهم من ذلك أنّه ينقض ما قاله الدكتور حسين نصّار ، من حيث إنّه - أي الزمخشري - قد نبّه على بعض العبارات ، فلا يعني عدم تنبيهه على كثير منها ما ذهب إليه الدكتـور نصّار ؟ وإلّا فلِمَ ينبّه على بعضهـا ؟

أرى أنّ السبب في هذا لا يعود إلى تناقض بناه الدكتور نصّار ، وإنّما إلـى طبيعة الأساس نفسه ، فهو معجم يُعنى بجوانب لغوية ، وبلاغية في وقت معا ، ومؤلّفـه

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ص ٢٤ .
(٢) المعجم العربي نشأته وتطوره ج ٢ ص ٧٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين يوجّه عنايته إلى الجانب اللغوي فإنّما يقوم بشرح المادة اللغوية حسب الطريقة التي انتهجها المعجميّون ، فيذكر من الشواهد ما يشرح به المادة ويوضّحها ، وقد يقف على معنى من معانيها رآه قد وقع - مثلا - في القرآن الكريم فيذكر الآية ، ثم ينبّه عليها ، ومثال ذلك قوله في مادة " أ ج ر " : " أجرك الله على ما فعلت ، وأنت مأجور عليه ، ومنه قوله تعالى : (على أن تأجرني ثماني حجج) (١) : أي تجعلها أجرى على التزويج يريد المهر ، ومنه قوله تعالى : (وآتوهنّ أجورهن) (٢) كأنّه قال : على أن تمهرني عمل هذه المدّة " .

ولعلّ الزمخشري لم ينبّه على كثير من عبارات الأساس ظنّا منه أنّ القارئ مثله في فطانته ، وسعة اطّلاعه ، أو لعلّه أراد أن يحثّه على البحث والتنقير عن هذه الشواهد وأمثالها في مصادرها الأصيلة ، ليزيده معرفة وأدبا ، كلّ ذلك محتمل لا يدفعه دليل قاطع ، غير أنّ الرأي الأول الذي ذهب إليه الدكتور نصّار يظلّ أكثر إقناعا ، وأقرب إلى فهم الزمخشري ، وغايته التي يسعى إلى تحقيقها .

ويلاحظ على كثير من شواهد الأساس أنّها ترد مبتورة عن سياقها ، غير مكتملة المعاني ، ولا توضّحها المناسبة ، وأكثر ما يقع ذلك في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ولعلّ السبب في هذا عائد إلى سهولة الرجوع إلى القرآن الكريم ، والسنّة النبوية للتأكد من الآيات ، والأحاديث ، ولو توفّر لهذا الكتاب مَنْ يقوم على تحقيقه ، ومراعاة ما أومأت إليه ، لكان - حقّا - تحفة أدبية رائعة ، ولكان هذا العمل - على صعوبته - عملا كبيرا يخدم فيه صاحبه اللغة والأدب جميعا .

---

(١) القصص الآية ٢٧ .

(٢) النساء الآية ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٢ -
منهـــج الأســـاس

اتّبع الزمخشري في ترتيب مواد الأساس ،الترتيب الهجائي المعروف الذى أشار إليه بقوله : " وقد رتّب الكتاب على أشهر ترتيب متداولا ،وأسهله متناولا . " (١)

ويُعدّ الزمخشري رائد هذا الترتيب ،وإن يكن قد سبقه إليه أبو المعالـــي محمد بن تميم البرمكي (- ٤٣٣ هـ) في كتابه الذى سمّاه " المنتهى في اللغة "(٢) ، وقال عنه ياقوت إنّه " منقول من كتاب الصحاح للجوهرى " وزاد فيه أشياء قليلة ،وأغرب في ترتيبـــه ". (٣)

إنّ ترتيب البرمكي هذا لم يشتهر الاّ بعد أن ألّف الزمخشري كتابه أســـاس البلاغة ،وتبعه في ذلك كثيرون ،حتى لقد أصبح للزمخشري مدرسة يُنسب إليها مَنْ يسير على هذا المنهج ؛" وذلك لعدم تداول كتاب البرمكي واشتهاره ، فكان الأســـاس للزمخشري المرآة التي وجد فيها الدارسون ،والباحثون أسس هذه المدرسة واضحـــة جلّية . ونظرا لسهولتها ،وانسجامها مع طبائع الأشياء ،أطلقوا عليها اسم المدرسة الحديثة ،فعلى جبينها دلائل الرقي ، ثمّ إنها ما زالت تفزو ميدان التأليف عنـــد محبّي تصنيف المعاجم العربيـــة . " (٤)

وقد قسّم الزمخشري أساس البلاغة وفق هذا الترتيب إلى أبواب وأطلق على كـــلّ باب منها اسم كتاب ،ورتّب المواد في كلّ كتاب وفق الحرف الثاني من حروف المـــادة

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص د .

(٢) وقد ذكر الأستاذ أحمد العطّار أنّه اطّلع على جزء من هذا الكتاب بالمكتبـــة الخاصّة بابراهيم حمدى الخربوطلي أمين مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة اللـــه بالمدينة المنورة ، انظر مقدّمة الصحاح ،الأستاذ احمد العطّار ص ٩٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ،لبنان ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م . ط ٣ .

(٣) معجم الأدباء ،ج ١٧ ص ٣٤ ،دار احياء التراث العربي ، بيروت ،لبنان ، الطبعة الأخيرة .

(٤) المعاجم العربية المجنّـــة ، ص ١٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأصلية ، ثم الثالث إن كانت ثلاثية ،ثم الرابع فالخامس إن كانت رباعيّة أو خماسيّة .[١]

وكان يشرح أكثر مواد المعجم في قسمين : حقيقي ،ومجازي ، والقسم الأول ـ أي المخصّص للمعاني الحقيقية ـ " هو مجموعة من الصيغ المشتقة من هذه المادة لا يقصد منها استقصاء في الجمع،أو فكرة أخرى سوى إعطاء بعض المعاني الحقيقية ، للدلالة على المعاني المجازية "(٢) وفيما يأتي مثال يوضح ذلك ،يقول في مادة " أ ج ج ": " أجّج النار فتأجّجت،وأجّت،وللنار أجيج ، واشتدّت أجّة الصيف،وتقول : هجير أجاج ، للشمس فيه سجاج ،وهو لعاب الشمس، وماء أجاج يحرق بملوحته ومن المجاز: مرّ يؤجّ في سيره إذا كان له حفيف كحفيف اللهب،وقد أجّ أجّة الظليم ،وسمعت أجّة القوم : حفيف مشيهم واضطرابهم . "

وقد يذكر الزمخشري ـ أحيانا ـ نوع المجاز في شرحه لبعض المواد فهو ـ مثلا ـ يقول في مادة " ع ب ب " : بعد أن يذكر معناها الحقيقي : " ومن المستعار قولهم لمن مرّ في كلامه فأكثر: قد عبّ عبابه " ويقول في مادة " ك ر ش " بعد ذكر المعنى الحقيقي : " ومن مجاز المجاز: دلو مكرشاء منتفخة النواحي" وهكذا كلّما أراد أن يذكر نوعا بلاغيا .

ويلاحظ أنّ الزمخشري لا يورد الفاظا ثم يشرحها ـ كما في المعاجم الأخرى ـ إنّما يأتي بها في تراكيب تُنبيء عن معناها ، ولا تصرّح به ، والأساس كلّه يصلح أن يكون مثالا على ذلك ، ولكنّني أكتفي بذكر مثال واحد ، لاعطاء فكرة مسبقة عن منهجه حتى لا أعود اليها إن صادفتني أثناء الدراسة ، فهو حين يريد أن يشرح معنى " أرم " يأتي بها أولا ثم يشرحها بقوله : " تقول : نفس ذات أكرومه ، من أطيب أرومه وتقول : رأيت حسّادك العرّم ،يحرقون عليك الأرم " ثم لا يزيد في شرحه على ذلك .

" ويرى الناظر في المواد المذكورة نقصا في الحروف ،فـ" أ ب ب " يليها " أ ب د " مباشرة ، وهذه بعدها " أ ب ر " وهكذا ، فالمواد الساقطة بين هذه

---

(١) انظر المعجم العربي نشأته وتطوره ج ٢ ص ٦٩٣ - ٦٩٤ .
(٢) السابق ج ٢ ص ٦٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أغفلها المؤلف عمدا ، لأنها لا تدخل في مواده ولا تنسجم مع الفكرة العامة التي بنى عليها معجمه ، أو لأن بعضها مهمل لم يرد في العربية . " (١)

---

(١) المعجم العربي نشأته وتطوره ج ٢ ص ٦٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٣ -
التعكيـــــــس

أشار الزمخشري في بعض مواد الأساس إلى فنّ لم يسبقه أحد الى القول بـــه ، ذلك هو فنّ التعكيس، ولعلّ من أبرز الشواهد عليه في الأساس ما جاء في مـــــادة " ج د ى " : " ويقال جدا عليه شوّه : إذا جرّ عليه ، وهو من باب التعكيس، كقولـــه تعالى : (فبشّرهم بعذاب أليم)(١)"، وفي مادة " ح رس " : " ومن المجـــــاز : فلان حارس من الحرّاس: أى سارق وهو ممّا جاء على طريق التهكّم والتعكيس، ولأنهـــم وجدوا الحرّاس فيهم السرقة كما قـــال :

ومحترس من مثله وهو حـــارس فواعجبا من حارس وهو محـــترس

ونحوه كل الناس عدول الّا العدول ، فقالوا للسارق : حارس " ثم قال الزمخشري فـــــي المادة نفسها : " وقد رأيته سائرا على السنة العرب من الحجازيين وغيرهم ، يتكلّم بـــه كلّ أحد يقول الرجل لصاحبه : يا حارس وما أنت يا حارس، وحسبناه أمينا فإذا هـــــو حارس، ومنه : لا قطع في حريسة الجبل ، وحرسني شاة من غنمي ، واحترسني ، وفـــــلان يأكل الحرسات أى السرقات ، ومضى عليه حرس من الدهر ، ومضت عليه أحـــراس. "

يتّضح من ذلك ، أنّ التعكيس قد يُسمّى تهكّما ، والتهكّم غرض من أغراضه وكذلـــك التفاؤل ، فهو يقول في مادة " ح و ط " : " ووقعوا في تحيط : أى في سنة تحيط بالنـــاس تهلكهم ، وفي تحوط : من حاط به بمعنى أحاط ، أو على سبيل التفاؤل ، وتحيط بكســـر التاء للاتباع " وقال " وإذا نزل بك خطب فلم يحطك أخوك ، وترك معونتك قيل : حاطـــك القضا ، وهو تهكّم أى حاطك في الجانب القضا ، وهو البعيد ، يقال : نسب قصا وبلـــد قصا ، ومعناه : لم يحطك بلانّ من يحوط أخاه يدنو منه ، ويسانده ، لا أن يحل منـــــه في نجوة ، ومثله فأعتبوا بالصليم ، وصله بطول الهجران ، ثم كثر حتى قيل : حطـــــني القضا والّا نكلت بك : أى تباعد عنّي . " وقد بيّن الزمخشري هذا الفن في الكشّـــاف فهو يقول بعد قوله تعالى : (وقالوا يا أيّها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنـــون)(٢) :

---

(١) آل عمران بعض من الآية ٢١ والتوبة بعض الآية ٣٤ والانشقاق الآية ٢٤ .
(٢) الحجر الآية ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكّم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها : (فبشّرهم بعذاب أليم) (إنّك لأنت الحليم الرشيد) (١) وقد يوجد كثيرا في كلام العجم ." (٢)

وفنّ التعكيس هذا هو صورة الاستعارة العنادية التهكّمية كما سمّاه البلاغيون من بعد (٣). ويرى الدكتور محمد أبو موسى أنّه ليس من المستساغ "إجراء الاستعارة في هذه الأساليب، وأنّ طريقة الزمخشري هذه التي تكتفي ببيان أصل هذه الطريقة وأنّها من العكس في الكلام، وأنّ القوم كثيرا ما يذهبون إليها، وهم ليسوا بدعا في هذا، فإنّ غيرهم من الأعاجم قد يعكس في كلامه، لا شكّ أنّ هذه الطريقة خير من تكلّف الاستعارة التي ينزل فيها التضاد منزلة التناسب" (٤)

---

(١) هود بعض الآية ٨٧ .
(٢) الكشّاف ج ٢ ص ٣١٠، دار المعرفة، بيروت، لبنان
(٣) انظر مثلا الايضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص ٤٢٠، شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان ١٣٩١هـ - ١٩٧١م. ط٦.
(٤) البلاغة القرآنية ص ٥٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٤ -
مجـــاز المجـــاز

يتردّد مصطلح مجاز المجاز في بعض مواد الأساس، إذ نجد الزمخشري يذكره - مثلا - في مادة " ج م ر " مبيّنا الغرض البلاغي منه فيقول : " ومن مجاز المجاز قـــول أبي صخر الهذلـــي :

إذا عطفت خلاخلهنّ غصّـــت بجمّارات بردى خـــدال

شبّه أسـوُق البردىّ الغضّة بشحم النخل ، فسمّاه جمّارا ،ثم استعاره لأسوُق النساء " ويقول في مادة " د ع و " : " ومن مجاز المجاز: تداعت إبل بني فلان : هزلت أو هلكت، قال ذو الرمـة :

تباعد مني أن رأيت حمولـتي تداعت وأن أحيا عليك قطيـع . "

وفي مادة " س و ف " : " ومن مجاز المجاز قول ذى الرمة :

وأبعدهم مسافة غور عقـــل إذا ما الأمر ذو الشبهات عالا "

وفي مادة " ق ر ط " : " وقرّطت إليه رسولا : نفّذته مستعجلا ،وهو من مجاز المجـــاز " . وممّا يورده في مادة " ق س و " : "وهذا كلام قسيّ كما يقال : كلام زائف ومهرج ،ويـــوم قسيّ وليل قسيّ : شديد من برد أو شدّة ظلمة أو شرّ. وهذه عشيّة قسيّة ، وقسا ليلنا : أظلم ،وعام قسيّ : قحط ،وسرنا سيرا قسيّا ، وأرض قاسية لا تنبت شيئا " . ثم يذكـــره الزمخشري في مادة " ك ت ف " : " ومن مجاز المجاز: في قلبه كتيفة وكتائف: حقـــد" ، وفي مادة " ك ل ى " : " ومن مجاز المجاز : سحابة واهية الكلى " وكذلك يصنع فـــي مادتي " ن ط ح " و " ن ط ع " .

أمّا مفهوم هذا المصطلح ،فقد بيّنه الزمخشري في الكشّاف بعد أن ذكر الآيـــة الكريمة (إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين)(١) ،فقال : " استعيرت لجهة الخـــير وجانبه ،فقيل : أتاه عن اليمين : أى من قبل الخير وناحيته ، فصدّه عنه وأضلّه . فـــإن قلت: أتاه من جهة الخير وناحيته مجاز في نفسه . فكيف جعلت اليمين مجازا عن مجاز؟ قلت: من المجاز ما غلّب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق ،وهذا من ذاك . " (٢)

---

(١) الصافات الآية ٢٨ .
(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وضّح الزركشي هذا المصطلح بقوله : " هو أن تجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فتتجوّز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقة بينهما . " (١)

وعلى ذلك فإنّ أمثلة مجاز المجاز الواردة في الأساس ،كلّها تسير على هذا النهج . ولو أخذنا مثالا واحدا ،ثم قسنا عليه سائر الأمثلة لكان في ذلك غنى عن تتبّع كل مادة،وما جاء فيها من هذا النوع من المجاز،ولتكن المادة " ج م ر " التي ذكرتها آنفا هي مثالنا على ذلك ،فقد قال فيها الزمخشري موضّحا التشبيه في بيت الهذلي " شبّه أسوُق البردى الغضّة بشحم النخل ،فسمّاه جمّارا ،ثم استعاره لأسوُق النساء " إنّ الجمار - ههنا - مجاز ، وحقيقته شحم النخل ،ولكنّه أصبح بمثابة الحقيقة للخدال.(٢)

---

(١) البرهان في علوم القرآن (محمد بن عبدالله) (-٧٩٤هـ) ج ٢ ص ٢٩٨ ،تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،دار المعرفة ،بيروت،لبنان، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م .ط ٢ .

(٢) جمع خدلة وهي المرأة الغليظة الساق المستديرتها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ١ -
علـــوم البلاغـــة

ذكر الزمخشري علمين من علوم البلاغة في الأساس، وهما علم المعاني وعلم البيان. وذكر كلمة البيان نفسها اثنتي عشرة مرة، كانت في ثلاث منها مسبوقة بكلمة علم، وفي تسع خالية منها. فقد وردت في المقدّمة مسبوقة بكلمة الفصاحة، ثم وردت بعد ذلك في مادة "ب ى ن": "وجاء ببيان ذلك، وبيّنته: أي بحجّته ورجل بيّن: فصيح ذو بيان." ثم وردت في مادة "ب ر هـ ن": "والبرهان بيان الحجّة وإيضاحها" ثم في مادة "ب ل و": "أبليته عذرا: إذا بيّنته له بيانا لا لوم عليك بعده." ثم في مادة "ح ب س": "بفلان حبسة: وهي ثقل يمنع من البيان" ثم في مادة "خ ط ب": "وتقول له: أنت الأخطب البيّن الخطبة، فتخيّل إليه أنه ذو بيان في خطبته" ثم في مادة "د ر ج": "وعليك بالنحو فإنّه مدرجة البيان" ثم في مادة "ر ن ق": "ورنقت منه المنية: دنا وقوعها. قال:

ورنّقت المنيّة فهي ظلّ على الأبطال دانية الجناح

وفيه بيان جليّ أنّ ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر." ثم في مادة "س ح ب": وفي الحديث: إنّ من البيان لسحرا" ثم في مادة "ف ت ق": "ومالك لا تفتّق الشعر تفتيقا؟ وهو تلخيصه وبيان معانيه"، ثم في مادة "ع ن ى": "وعني بكذا واعتنى به وهو معنيّ به، ومنه قول سيبويه: وهم ببيانه أعني."

وواضح أنّ الزمخشري يعني بها في مادة "ب ى ن" الحجة في المرة الأولى، ويعني بها الفصاحة والبلاغة في المرة الثانية، ويعني بها في مادة "ح ب س" الإفصاح في الكلام، وفي "ر ن ق" الحجّة، وفي "ب ر هـ ن" و"ف ت ق" و"ع ن ى" الشرح والتوضيح، وفي المقدّمة والمواد "ب ل و" و"خ ط ب" و"د ر ج" و"س ح ر" الفصاحة والبلاغة.

وهذا المعنى الأخير هو الذي بيّنه عبد القاهر الجرجاني حين عرّف البلاغة والفصاحة، والبيان، والبراعة، وكل ما شاكل ذلك بأنّها "وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة، ثم تبرّجها في صورة هي أبهى، وأزين، وآنق، وأعجب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحقّ أن تستولي على هوى النفس ، وتنال الحظّ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد ، وتطيل رغم الحاسد ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته ، وتختار له اللفظ الذى هو أخصّ به ، وأكشف عنه ، وأتمّ له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزيّة . " (١)

كان هذا فيما يتعلّق بكلمة البيان وحدها ، أمّا كلمة البيان المسبوقة بـ " علم " فقد وردت في المقدّمة حين قال الزمخشري فيمَنْ يتقن ما جاء في الأساس " هو من علم البيان حظي ، وفهمه فيه حاظي . " وذكرت مرة ثانية في المقدمة نفسها ، إذ جعل الزمخشري من أسباب الفحولة في الأدب ، وكمالها أن يحظى الأديب برشّ من علم البيان ، ثم ذكرت مرة ثالثة في مادة عصب ، بقوله بعد أن بيّن الاستعارة في بيت الفرزدق:

إذا العصب أمسى في السماء كأنّه سدا أرجوان واستقلت عبورها

وهذا باب من علم البيان حسن بليغ . "

وأمّا علم المعاني فلم يرد في الأساس إلّا في المقدّمة ، فلقد رأى الزمخشري أنّ من تمام النبوغ في الأدب أن يصيب الأديب " ذروا من علم المعاني . "

وأمّا علم البديع ، فلم يُذكر في الأساس ألبتّة ، وإن كنّا نجد في " ب د ع " كلمة البديع قد وردت مرّتين ، وكانت فيهما بمعنى " جديد " .

وبعد ، فماذا يعني الزمخشري بعلمي المعاني والبيان ؟ وماذا نفهم نحن منهما ؟ هل أراد بهما العلمين المعروفين عند البلاغيين من بعده ، الذين قسّموا البلاغة الى علومها الثلاثة ، وحدّدوا لكلّ علم منها مفهومه ، ومسائله التي يمتاز بها من سواه من العلوم ؟ أم أراد بهما الزمخشري شيئا آخر ؟

إنّ الاجابة عن ذلك من الأساس تبدو غيرَ ممكنة ، وإنْ ظهر للوهلة الأولى ، أنّ الزمخشري يفصل بين العلمين ، فصلا واضحا ، لكنّ ذلك لا يكفي في الحكم على دقّة هذا التقسيم ، وتعميمه ، بل لا نرتاح نحن حين نحكم من إشارة أو إشارتين على وضوح هذا التقسيم ، ثمّ إن الزمخشري لم يُشر إلى علم البديع في أساسه ، فهل نفهم من ذلك

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنّه يهمل علم البديع ؟ كيف وأسلوبه في الأساس قائم على فنون هذا العلم؟ ولهذا لا نستطيع أن نقف عند الأساس في معرفة مراده من علمي المعاني والبيان ، وعدم ظهور مصطلح البديع فيه . ولا بدّ من الإفادة مما ألّفه الزمخشري في غير الأساس، وليس لدينا أثبت من تفسير الكشّاف ،فهو حجّتنا في تحقيق ما ذكره في أساسه .

لقد ألف الزمخشري كتاب الكشّاف في تفسير القرآن الكريم ،لأنّه رأى التأليف في ذلك واجبا عليه ،بل " لأنّ الخوض فيه كقرص العين " لما يرى عليه الزمان من رثاثة أحواله ، وركاكة رجاله ، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم ،فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسّس على علمي المعاني والبيان " (١) ويرى أنّ علم التفسير لا يتمّ لتعاطيه وإجالة النظر فيه " إلّا رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن ، وهما علم المعاني والبيان ". (٢)

نلاحظ مما سبق أنّ الزمخشري يذكر علمي المعاني والبيان ،حتى ليبدو أنّه يفصل بينهما فصلا قاطعا ،ويكاد يتلاشى هذا الحكم حين ننظر في تناوله لمسائل هذين العلمين المعروفين عند البلاغيين من بعده ،فلقد خلط الزمخشري في كثير من مسائلهما فجعل بعض ما لعلم البيان - حسب مفهوم البلاغيين المتأخرين - داخلا في علم المعاني ، وبعض ما لعلم المعاني داخلا في علم البيان ومن ذلك أنّه يعدّ الاستئناف من علم البيان ،وهو عند المتأخرين من علم المعاني (٣) ،ويعدّ التجريد من علم البيان ،وهو عند المتأخّرين من علم المعاني ،(٤) ويجعل التعريض من اختصاص علماء المعاني ،في حين نجده عند المتأخّرين من اختصاص علماء البيان . (٥)

---

(١) الكشّاف ج ١ المقدمة ص ٣ .
(٢) السابق ج ١ المقدمة ص ٣ .
(٣) نفسه ج ٢ ص ٢٣٢ ومفتاح العلوم ،للسكاكي (-٦٢٦ هـ)ص ٢٥٣ ، ضبطه وشرحه الاستاذ نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م . ط ١ .
(٤) الكشاف ج ٢ ص ٤٠٥ وانظر الإيضاح ص ٥١٢ .
(٥) السابق ج ٣ ص ١٥ وانظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (-٧٤٩هـ) ج ١ ص ٣٨٠ ، أشرفت على مراجعته وضبطه وتدقيقه جماعة من العلماء باشراف الناشر ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس من غرضي أنْ أتتبّع كلّ المسائل التي أوردها في كشّافه ،وخلط فيهـــا ، وإنما يكفي في توضيح ذلك ما ذكرته ،لنتبيّن منه أنّ الزمخشرى لا يلتزم في تمييـــزه بين العلمين التزامَ مَنْ جاء بعده من البلاغيين . وقد تتبّع الدكتور محمد محمد أبوموسى ورود هذين المصطلحين في الكشاف تتبّعا علميا دقيقا وصل فيه الى ما خلاصته أننّـــا " لا نستطيع أن نقول : إنّ الزمخشرى قد ميّز بين مباحث هذه العلوم ،وغاية ما يمكن أن يقال بعد تتبّع ومقارنة : إنّ اطلاق علم المعاني على مباحث البيان قليل ، وإطـلاق علم المعاني على مباحثه في مصطلح المتأخّرين كثير ،وإنّ اطلاق علم البيان على مباحـث علم المعاني قليل بالنسبة إلى إطلاقه على مباحث علم البيـان . " (١)

ثمّ يقـول موضّحا المقصود من علم المعاني الوارد في الكشاف : " أمّا علم المعانـي بهذا المفهوم الآخر الذى يعني النظر في أنواع المعاني وأجناسها ، أو النظر فـــي صحّتها وخطئها ،فذلك بعيد قطعيّا عن مفهوم علم البيان ،بل عن مفهوم علم المعانـي بهذا المعنى الذى حدّده المتأخّرون ونظروا فيه إلى كلامه كما رأينا ، وبهذا يصبـــح لعلم المعاني مفهوم مغاير لمفهوم علم البيان ،ولهذا ساغ له كثرة اطلاق مصطلح علمـي المعاني والبيان ،مع خلطه بين مباحثهما أحيانـا . " (٢)

لذلك لا يُعدّ الزمخشرى أوّلَ مَنْ فصل بين علمي المعاني والبيان فصلا حاسما ، ولا نستطيع أن نزعم ،أنّ البلاغيين قد ساروا من بعده على هديه ،ولا كان هو إمامهم في ذلك ،وإن كان أسبقهم إلى ذكر هذين العلمين ومحاولة الفصل بينهما . وهـــذا يخالف ما يراه بعض الدارسين الذين ذهبوا إلى أنّ الزمخشرى كان " أول من مـــيّز بين هذين العلمين فجعل لكلّ منهما مباحثه الخاصّة ،واستقلاله الذى يشخّصه (٣)، وكذلك يخالف ما ذهب إليه بعضهم حين قال : " وكأنّ الزمخشرى كان يشير إلـــى الفصل بين علمي المعاني والبيان ، فيسمّي كلّا منهما علما ، كما كان يستعمل لفـــظ كلّ منهما عَلَما على المباحث المتصلة به ،وعلى هديه سار العلماء من بعـــده . " (٤)

---

(١) البلاغة القرآنية ص ٢٤٨ .
(٢) السابق ص ٢٤٨ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ د . شوقي ضيف ص ٢٢١ ،دار المعارف ،مصر ط ٣ .
(٤) الموجز في تاريخ البلاغة ،د . مازن المبارك ص ١٠٦ ،دار الفكر ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ الفصل الحاسم بين علمي المعاني والبيان - كما عند المتأخّرين - كان على يدى السكّاكي في كتاب المفتاح ، فقد خصّص القسم الثالث منه لدرس البلاغة العربية ، فبدأه بمقدّمة يعرّف بها بعلم المعاني أولا ثم علم البيان ، ثم أخذ يفصّل ذلك تفصيلا دقيقا ، يجعل لكل علم منهما مباحثه الخاصة به ، ولم يعرض إلى علم البديع إلّا بعد الانتهاء من هذين العلمين ، ولم يُسمّه ولم يجعله علما ، وإنّما أشار إلى الأعرف من وجوه هذا الفن الذى يصار بها إلى تحسين الكلام ، وجَعلَها في قسمين : " قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ . " (١) " ولم يخرج المتأخّرون على هذا التحديد الذى انتهى إليه السكّاكي . "(٢)

وأمّا علم البديع - وهو العلم الثالث من علوم البلاغة عند المتأخرين - فإنّ الزمخشرى لم يذكره في أساسه ، كما ذكر علمي المعاني والبيان ، لا لأنّه يُعدّ ذيلا لهما كما ذهب إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف ، حين رآه يذكر علمي المعاني والبيان في كشّافه ، ثم لم يذكر البديع إلّا آخرا (٣) ، فإنّ هذا الفهم لا يستقيم مع ما نجده في الكشاف ، والأساس معا ، ولا يؤيّده الزمخشرى نفسه الذى " جاء في عصر بدأ الكتّاب والمؤلّفون يرون للزخرف اللفظي بهجة ورواء في أساليبهم ، فتأسّى بهم ، وسار على دربهم ، مع شيء من الحيطة والحذر . " (٤)

وهكذا فقد كان الزمخشرى يستخدم أساليب البديع في كتاباته ، ولكنّه مع ذلك كان حذرا في استخدام هذه الأساليب ، فلِمَ كان كذلك ، ولم لم يعدّ البديع علما ، ولم يعتدّ به في مقدّمتي الأساس والكشاف ، كما اعتدّ بعلمي المعاني والبيان ؟ إنّ ذلك يرجع " إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء في عصره إلى هذا الفن حتى صار صناعة ثقيلة متكلّفة ، فهو بهذا يشير إلى أنّ ما جاء في القرآن من هذا اللون الذى فتنتم به

---

(١) مفتاح العلوم ص ٤٤٣ .
(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ، د . أحمد مطلوب ج ١ ص ٣٨٢ و ص ٤٠٩ ، ج ٣ ص ٢٧٧ ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
(٣) البلاغة تطوّر وتاريخ ص ٢٢١ .
(٤) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي ص٢٣ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٥٠ ط ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يكن هو وحده سرّ بلاغته كما جعلتموه سرّ بلاغتكم ."(١) ولقد أشار الزمخشري إلى هذا المعنى حين قال معلّقا على قوله تعالى (من سبأ بنبأ) (٢) بأنّه " من جنس الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلّق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعا، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحّة المعنى وسداده ."(٣)

فالسبب في عدم احتفال الزمخشري بعلم البديع - نظريّا - إنّما يرجع إلى إسراف الأدباء والشعراء في عصره، في استخدام فنونه استخداما متكلّفا غير مطبوع، فانصرف إلى غيره - مع تقديره لعلم البديع - حتى يثبت أنّ في البلاغة غيرَ هذا العلم، ممّا يُعتدّ به .

وتظلّ المصطلحات البلاغية جامدة لا قيمة لها، ما لم تكن وسيلة للكشف عن جماليات فن القول العربي، التي هي الغاية من البلاغة العربية (٤)، هكذا نظر إليها، عبد القاهر الجرجاني (٥)، وهكذا نظر إليها الزمخشري حين ذكر مصطلحي المعاني والبيان في مقدّمة الاساس، ثم وجّه عنايته إلى استجلاء مضمونيهما في فن القول وذلك باستكثاره من الشواهد الفنية المختارة اختيارا ينمّ على ذوق بياني رفيع.

---

(١) البلاغة القرآنية ص ٥٧٤ .
(٢) النمل الآية ٢٢ .
(٣) الكشاف ج ٣ ص ١٣٩ .
(٤) فصول في البلاغة، د . محمد بركات حمدي أبو علي، ص ١٧٤، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م. ط١ .
(٥) ذلك يتضح من تعريف المصطلحات البلاغية والفصاحة والبراعة والبيان، وما شاكلها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٢ -

الفصاحـــــة

يتوزّع مفهوم فصح ومشتقاتها - ومنها الفصاحة - في الأساس إلى معان عديدة ظهر أكثرها في مادة " فصح " فهي تارة تدل على الانكشاف والوضوح وذلك في : " سقاهم لبنا فصيحا ، وهو الذى أخذت رغوته ، وأذهب لباؤه ، وخلص منه ، وفصح اللبن ، وأفصح ، وفصّح ، وأفصحت الشاة فصّح لبنها ، ومن المجاز : سرينا حتى أفصح الصبح ، وحتى بدا الصباح المفصح . وهذا يوم مفصح ، وفصح ، لا غيم فيه ولا قرّ " . وهي في مرّة ثانية تدل على تكلّم الاعجمي بالعربية ، وانطلاق لسانه بها وخلوص لغته من اللكنة : " أفصح الاعجمي : تكلّم بالعربية ، وفصح : انطلق لسانه بها ، وخلصت لغته من اللكنة . " وهي في مرّة ثالثة تدل على تكلّف البلاغة في الكلام " فلان يتفصّح في منطقه ، إذا تكلّف الفصاحة . "

هذا ما يُفهم من معنى الفصاحة في مادة " فصح " ، وقد ظهر في الأساس من معانيها : الإبانة ، والبلاغة ، والاستعمال ، وهي معان تظاهرت على إثباتها الشواهد الكثيرة ، فمن الامثلة على معنى الإبانة ما وقع في مادة " ر ف ث " : " رفث في كلامه وأرفث ، وترفّث : أفحش ، وأفصح بما يجب أن يكنى عنه في ذكر النكاح " وفي مادة " ف ى ض " : " كلّمته فما أفاض بكلمة : أى أفصح بها " وكذلك في مادة " ل ح ن " : "عرفت ذلك في لحن كلامه ، وفيما صرفه إليه من غير إفصاح به " . ومن الامثلة على معنى البلاغة ، ما ورد في مادة " ت ق ن " : " رجل متقن وتقن ، وفلان تقن من الأتقان : موصوف بالإتقان : أى حاذق في عمله وإنه لأرمى من ابن تقن ، والفصاحة من تقنه : أى من سوسه . " وفي مادة " ط ب ع " : " وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة " وفي مادة "ط و ع " : " رجل طيّع اللسان : فصيح " وفي مادة " ع م ش " : " فلان لا تعمش فيه الموعظة لمّا عملت فيه بقيت لا تبصر فيه مستدركا فكأنّها عمشاء . " وفي مادة "ك ل م " : " نطق بكلمة فصيحة ، وبكلمات فصاح . "

فالمراد بالفصاحة - ههنا - البلاغة نفسُها إذ لا يُفهم من الشواهد المذكورة غير هذا المعنى . وقد وردت كذلك في مقدّمة الأساس ، وذلك حين مدح الزمخشرى

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبي عليه السلام بأنّه " الذى استخزنه الله الفصاحة والبيان . " (١)

ومن الأمثلة على معنى الاستعمال : " قولهم : لا أباليه ، أى لا أخابره ، لقلّة اكتراثي له ، وهو أفصح من لا أبالي به "(٢) . وفي مادة " رح ب " : " قعد فلان في رحبة داره ، ورحبة داره ، والفتح أفصح " ، وفي مادة " م غ ص " : " في بطنه مغص ، ومغص ، وقد مغص ، فهو مغوص ، ومغص وهو وجع ، وتقطيع في الأمعاء ، وأصله بالسين مغس من مغسه إذا طعنه ، والفصيح سكون الغين " .

والمراد بالفصاحة في هذه المواد هو : أنّ اللفظ " على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيّتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالا . " (٣)

وهكذا تظهر عناية الزمخشري بالفصاحة - على اختلاف معانيها - وتمييزه الالفاظ الفصيحة من غير الفصيحة ، والعبارات البليغة الرائدة ، فهو معنيّ في الأساس بتقديم أفصح الالفاظ ، بأبلغ العبارات ، كما يُقدّم لقارئه الالفاظ الفصيحة ، وينبّه على غير الفصيحة أحيانا ، حتّى يكون على بيّنةٍ ممّا فصح من الالفاظ وحسن ، وما ترك منها وخزن في بطون المعاجم أو أهمل ، فإنّ من تمام آلات البلاغة " التوسّع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها ، والعلم بفاخر الالفاظ ، وساقطها ، ومتخيّرها ، ورديئها . " (٤)

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص ج .
(٢) مادة " ب ل و " .
(٣) الكشاف ج ٢ ص ٢٣١ .
(٤) كتاب الصناعتين ص ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٣ -
النحو ومباحث المعاني

يحفل الأساس بشواهد كثيرة ،تؤكّد اهتمام الزمخشري بالنحو،إذ يعدّه أساسا متينا ،لا تقوم البلاغة العربية الّا به . وهو ـ عنده ـ الطريق الموصل إلى البيان عامة ، وإلى فهم البيان القرآني خاصّة.ولا يمكن لأيّ جملة أن تنهض ،أو تستقيم ،إلّا بمراعاة قوانينه،والعمل بما تسمح به .

ولقد صرّح الزمخشري بذلك في أكثر من موضع في أساسه ،فهو ـ مثلا ـ يرى أنّ النبوغ في الأدب،لا يتمّ الّا بنيل " حظّ من الإعراب،الذي هو ميزان أوضاع العربية ، ومقياسها ،ومعيار حكمة الواضع وقسطاسها " (١) ونجد في مادة " د ر ج " :" وعليك بالنحو فإنّه مدرجة البيان " .

ومصطلح الإعراب في الأساس،يقع عند الزمخشري بمعنى يشتمل النحو والصرف معا ، هذا ما يفهم من تعريفه للإعراب ـ وقد ذُكر ـ وما يُفهم من طريقته في عرض الشواهد فهو لا يفصل فيها بين المسائل النحوية ،والصرفية ،وإنّما يراها تنتسب إلى علم لا يتجزّأ ،هو علم الإعراب، ونستبين ذلك من عمله في المقدّمة ،فقد احتفل بالإعراب ثم لم يذكر مصطلحي : النحو والصرف،رغم أنّه يعرض لكثير من مسائلهما في الأساس فكان بذلك مستغنيا عنهما بمصطلح الإعراب الذي يجعلهما في معنى واحد . وقد اتّبع ذلك في كتابه المفصّل في النحو،إذ قال في مقدّمته : " هذا وإنّ الإعراب أجدى من تغاريق العصا ،وآثاره الحسنة عديد الحصى ومَنْ لم يتّق الله في تنزيله ، فاجترأ على تعاطي تأويله ،وهو غير معرب،فقد ركب عمياء ،وخبط خبط عشواء ،وقال ما هو تقوّل وافتراء وهراء ،وكلام الله منه براء ،وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان ،المطّلع على نكت نظم القرآن ،الكامل بإبراز محاسنه ، الموكّل بإثارة معادنه ،فالصّاد عنه كالسّاد لطرق الخير كيلا تسلك ،والمريد بموارده أن تُعاف وتُترك . " (٢)

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص د .
(٢) المفصّل في علم العربية ،الزمخشري ،المقدّمة ص ٤ ،دار الجيل ،بيروت، لبنان ، ط ٢ .

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سمّى الزمخشري كتابه هذا " المفصّل في صنعة الإعراب " وقسّمه إلى أربعة أقسام : القسم الاول في الأسماء ، والقسم الثاني في الأفعال ، والقسم الثالث في الحروف ، والقسم الرابع في المشترك من أحوالهما ، ونفهم من هذه التسمية ، ومن التقسيم نفسه ، أنّه يعني بالإعراب النحو ، والصرف ، فهو يضمّ فيه المسائل النحوية والصرفية دون تمييز يحكم بافتراقهما . (١)

ويظهر ، أنّ الزمخشري ، كان في نظرته إلى النحو ، وقيمته البيانية ، متأثّرا في ذلك كلّه ، بعبدالقاهر الجرجاني ، الذي يرى أنّ النحو هو " الطريق إلى البيان ، والكشف عن الحجّة والبرهان . "(٢) وأنّ الذين يزهدون في النحو ويحتقرونه ، إنّما صنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الشعر " وأشبه بأن يكون صادّا عن كتاب الله ، وعن معرفة معانية ؛ ذلك لأنّهم لا يجدون بدّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه ، إذ كان قد عُلم أنّ الالفاظ مغلقة على معانيها ، حتّى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأنّ الأغراض كامنة فيها ، حتّى يكون هو المستخرجَ لها ، وأنّه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلام ، ورجحانه حتّى يُعرض عليه ، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتّى يُرجع إليه ". (٣)

لقد أردت بهذا التوضيح ، أنْ أُنبّه إلى اهتمام الزمخشري في أساسه بالنحو ، وبمعانيه التي تتمثّل في شطريه : الإعراب ، ومعاني الإعراب (٤) ، وهو " شطرها الأكبر ، وهو الذي غُلّب على النحو ، أو غلّب عليه ، واستأثر بأهمّ أبوابه ، وفصوله ، ذلك لأنّه هو الذي يكشف عن مواقع الالفاظ في التراكيب ، ويدلّ عليها دلالة محسوسة مشهورة في الأعم الأغلب ، أمّا الشطر الآخر من معاني النحو ، فهو الذي خرج من أبواب النحو ، أو أخرج منها ، وهو جدير بأن يُردّ الى أصله ، وأن يتبوأ مكانه من ذلك الأصل ، ذلك

---

(١) انظر - مثلا - القسم الثاني ، تجد فيه أصناف الفعل الثلاثي ، وأوزانه ، وكذلك صنع في الفعل الرباعي ، وقد تناول في القسم الرابع ، مواضيع صرفية ، منها : المشترك ، والإمالة ص ٣٣٥ ، والوقف ص ٣٣٨ ، والإعلال ص ٣٥٧ ، والإبدال ص ٣٦٠ ، والإدغام ص ٣٩٣ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٨ .

(٣) السابق ص ٢٨ .

(٤) كان الحديث آنفا عن النحو والإعراب عند الزمخشري ، أمّا الآن فهو كما هو معروف عند أغلب النحاة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما يُعرف بأحوال الإسناد ، وصور التركيب، أو صور التراكيب ."(١) ولقد برز هذان الشطران في أساس البلاغة ،بروزا ظاهرا ، تؤكّده الشواهد الواردة فيه ، ويحسن بي أن أعرض للشواهد النحوية في الأساس،إذ سنتبيّن من خلالها ،ما ذهبتُ أثبته ، فالزمخشري يهتمّ في أساسه بالميزان الصرفي للكلمات، ومثال ذلك ما جاء في مادة "أ خ ر" : " وبعته بيعا بِأَخِرَةٍ أى بِنَظِرَةٍ معنى ووزنا " وفي مادة "أ ز ف" : " أزف الرحيل : دنا وعجل ومنه : أقبل يمشي الأزَفى بوزن الجَمَزى ، وكأنّه من الوزيف، والهمزة عن واو" وفي مادة "أ ص ر" : " ومضى فلان إلى المأصر، وهو مفعل من الإصر، أو فاعل من المصير بمعنى الحاجز" وفي مادة "ب ث ق" : " وقد سدّوا البثق . والبثق هو المكان المكسور، فعل بمعنى مفعول أو تسمية بالمصدر كالضرب، والصيد" وفي مادة "ث ط ط" : " ورجل ثَطٍ بوزن عَمٍ ، وهو مقلوب عن ثَتِط" .

ويذهب الزمخشري في بعض المواد ،إلى تصحيح أخطاء ظُنّت صوابا ، ومن ذلك ما ورد في مادة "أ ج ر" : " وآجرني فلان داره ،فاستأجرتها ، وهو مُؤْجِر ، ولا تقل مؤاجر، فإنّه خطأ ، وقبيح ، وليس آجر هذا فاعل ، ولكن أفعل ، وإنما الذى هو فاعل قولك : آجر الأجير مؤاجرة ،كقولك : شاهره ، وعاومه ، وكما يقال : عامله وعاقده" وفي مادة "أ س ر" : " تقول العامة عود يسر ، وهو خطأ ،إلّا أن يقصد به التفاؤل" .

وقد يعرض في أساسه إلى معاني الإضافة،أو معاني بعض الحروف والأفعال ، وفائدتها البلاغية ،كما في مادة "ح م س" : " ووقعوا في هند الأحامس: إذا وقعوا في شدّة ، وبليّة ،ولقي فلان هند الأحامس إذا مات، وبنوا هند قوم من العرب فيهم حماسة ، ومعنى إضافتهم إلى الأحامس: إضافتهم إلى شجعانهم ،أو إلى جنس الشجعان وأنّهم منهم ." وكذلك في مادة "خ ب ط" : " قال زهير :

وليس مانع ذى قربى ولا رحم يوما ولا معدما من خابط ورقا

أى: ولا معدما خابطا ورقا فأدخل مِن ،لتأكيد النفي ." وفي مادة "ز ع ب" : " رمح زاعبي ، ورماح زاعبية ، نسب إلى رجل من الخزرج كان يعمل الأسنّة عن المبرّد . وقيل

---

(١) نحو المعاني ،د. أحمد عبد الستار الجواري ،ص٨٥ ،مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ،١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي المسألة التي إذا هزمت تدافعت كالسيل الزاغب يزعب بعضه بعضا : أي يدفعه وياء النسبة للنسبة إلى الزاعب لمعنى التشبيه ،أو للتأكيد كياء الأحمري . " وفي مادة " غ ر ض " : " تقول : إذا فاته الغرض: فتّه الغرض،وهو الضجر، ومنه غَرِضْتُ إلى لقائك ، وعدّى بإلى،لتضمينه معنى اشتقتُ وحننتُ. "

وقد ينظر الزمخشري في مسائلَ ،يعرض فيها إلى آراء بعض النحاة ،ثم يختار منها الصواب،أو يُبدي فيها رأيه إنْ لم يرض بآراء الآخرين ، وقد حدث ذلك في مادّتي " ش أ ر " و" ح ق ق ".

ومن الأبواب النحوية التي ظهرت في الأساس ،باب العدد كما في مادة " ب ض ع " : والبدل كما في مادة " ب ط ر " ،والمنوع من الصرف كما في مادة " ت و م " ، وكذلك ظهر من أبواب الصرف : التصغير كما في مادتي " ب ر هـ " و" ج هـ د " ،والنسب كما في مادتي "ج ن د " و" ش ر ط " والقلب ،وصيغ المبالغة كما في مادتي " ب ل و " و " ر ح م " .

وهكذا يتبيّن لنا الاهتمام الواضح الذي يُبرزه الأساس ،وأعني به اهتمام الزمخشري بالنحو من حيث كونه انتحاء سبيل العربية في التعبير عن الأفكار، والمشاعر، تعبيرا يتحرّى الصدق ،والإصابة ،والدقّة ،والرّقة ،والفخامة ،والجمال ،والجلال " (١) فهو حين يُصحّح خطأ ،أو يُوضّح مسألة ،أو يُنبّه إلى معنى ،أو وظيفة بلاغية يؤدّيها النحو، إنّما يعنيه من ذلك الغرض البلاغي بعد صحة الأداء ،وإلّا كيف يكون النحو مدرجة البيان ،إنْ لم يقفنا على ذلك كلّه ؟وكيف يمكن الوقوف على " مناهج التركيب ،والتأليف، وتعريف مدارج الترتيب، والترصيف بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا ، ومتناظمة لا طرائق قددا ." (٢) إنْ لم يكن النحو هو السبيل إلى ذلك ؟ بل كيف يكون النحو مُطّلعا على نكت نظم القرآن ،إنْ لم تراع قوانينه ، ومعانيه بشطريها ؟

ولهذا ذهب بعض الباحثين ،إلى أنّ "انتحاء كلام العرب والقصد إلى طريقتهم في التعبير ،لا بدّ أن يشتمل على الصفتين متداخلتين ،متكاملتين في وقت معا ، وهما

---

(١) نحو المعاني ص ٢٥ .
(٢) أساس البلاغة ص د .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصحّة ، والبلاغة ، بل إنّ من أهل العلم بالعربية ، مَنْ لا يقبل أن يقيم بينهما حاجزا ، ولا يرى أن يكون بينهما افتراق ." (١) وقد كان عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " دائبا على إثبات أنّ النظم إنّما هو " توخّي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه ، والعمل بقوانينه ، وأصوله ." (٢) وكان يُعرّف الإعراب في كتاب آخر بقوله : " هو أن يُعرب المتكلّم عمّا في نفسه ، ويبيّنه ، ويوضّح الغرض ، ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة في التقديم ، والتأخير زائل عن الإعراب ، زائغ عن الصواب ، متعرّض للتلبيس والتعمية ." (٣)

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري في أساسه ، حين قال في مادة " ل ح ن " : " لحن في كلامه : إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ ، أو صرفه عن موضوعه الى الإلغاز ." فهو يشير في الأولى الى الصحّة في أداء العبارة ، وفي الثانية إلى أداء المعنى ، بما يقتضيه علم المعاني ، الذي " يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال ." (٤)

وقد مثّل الزمخشري لذلك في أساسه - بشواهد شتّى ، تدلّ على عنايته ، بانتقاء التراكيب الدالّة على المعنى ، في أحسن عبارة ، ولعلّ من أوضح هذه التراكيب دلالة على ذلك ، ما أورده الزمخشري في مادة " أ ط ر " :

وتشتاقها جاراتها فيزرنها ... وتعتلّ عن ايمانهنّ فتعذر
وإن هي لم تقصد لهن أتينها ... نواعم بيضا مشيهنّ التأطّر

إنّ هذين البيتين - في ظنّي - هما من السهل الممتنع ، الذي يخيّل إلى القارئ أنّه يستطيع أن يقول مثل ذلك ، فإذا حاول عجز وقصّر عن الإتيان بأمثالهما ، وذلك لِما لهذا النظم من رَقْق وانسياب ، يدلّان على تلك المرأة المرفّهة التي تناغمت الالفاظ في رسم صورتها ، وجاراتها . وكذلك القول فيما أورده الزمخشري في مادة " ض ر م " :

---

(١) نحو المعاني ص ٢٢ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٥٢ .
(٣) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ص ٦٧ ، تحقيق هـ. ريتر ، مكتبة المثنى ببغداد ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م . ط ٢ .
(٤) التلخيص ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تسترى قدرى إذا ما طبختها ... عليّ إذا ما تطبخين حرام
ولكنْ بهذاك اليفاع فأوقدى ... بجزل إذا أوقدتِ لا بضرام

فهما يعبّران عن ذلك النَّفَس الحار الذى تصدر عنه قريحة الشاعر .

ومثلما نجد في التركيب سلاسة في التعبير، ودقّة، وهدوءا - كما رأينا في الأبيات السابقة - نجد كذلك اهتزازا وسرعة في تراكيب أخرى، إذ يأتي فيها الإيقاع هادرا أو موائما لِما جاءت الالفاظ تعبّر عنه، ومثال ذلك ما يقع في مادة " ص و ح " :

وشِعْبٍ كَشَكِّ الثوب شَكْسٍ(١) طريقُه ... مَجامِعُ صَوْحَيْهِ(٢) نِطافٌ(٣) مَخاصِرُ(٤)
تعسّفْتُه بالليل لم يَهْدِني لـه ... دليلٌ ولم يُثْبِتْ ليَ النعتَ خابرُ

إنّ الشاعر يصف - ههنا - طريقا عسيرة، وعرة السالك، لا يسلكها إلّا الرجل الشجاع، لذلك فهو - بعد هذا الوصف الدقيق - يأتي فيخبر بأنّه اجتاز هذا الشعب فلا يليق أنْ يقول مُعبّرا عن ذلك " تعسّفته بالليل " فكان بذلك تامُّ الوصف، لأنّ ما كان هذا هو حاله لا يصحّ لوصفه إلّا هذان اللفظان اللذان يدلّان على وعورة الطريق وتجشّم المتاعب في سبيل الخلوص منها، ولو اُستعمل لفظٌ آخر في التعبير عن هذه المعاني، كأنْ يقول الشاعر - مثلا - " تجاوزتُه " أو " مررتُ به " لَضَعُف المعنى، وهزل الوصف الذى توخّاه .

ومثل ذلك البيت في مادة " ض ج ج " :

ذكرتُكِ والحجيجُ لهم ضجيجٌ ... بمكّةَ والقلوبُ لها وجيبُ

فقد أراد الشاعر توضيح المقام الذى ذَكَر محبوبته فيه، فإذا هو يذكرها في ساعات لا يكون فيها، إلّا الضجيج، والحركة المستمرة، فيعبّر عن ذلك بألفاظ، هي في حجم هذا المعنى، فيستعمل لفظة الحجيج، ثم يُتبعها بلفظة " ضجيج " فيتتابع ذكر حرف الجيم

---

(١) شكس : مختلف .
(٢) صوحيه : جانبيه .
(٣) نطاف : عذاب .
(٤) من الخصر أراد الريق، وقد ذكر الزمخشرى معنى آخر للشعب، وأن المراد فم المرأة وشبّهه بشك الثوب لصفره . انظر مادة " ص و ح " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- وهو حرف مجهور - فيغدو الإيقاع "متموّجا ذا حركة واضطراب، ومتوائما مع الوصف المُراد .

ويشبه ذلك قول جرير في مادة "ع ل و" :

إنّي انصببتُ من السماء عليكُم حتّى اختطفتكَ يا فرزدقُ من عَلِ

فهو يريد أن يظهر سرعة انقضاضه على الفرزدق، فلا يتأتّى له الّا أن ينصبّ عليه انصبابا سهولا، ثم يختطفه اختطافا سريعا، وكلّ هذا جاء في سرعة نلحظها في التركيب نفسه؛ وما ذاك إلّا لأنّ الشاعر وُفّق في اختيار الالفاظ المعبّرة عن المعنى الذى يرمي اليه .

وكذلك البيت في مادة "م ع ع" :

سَبوحا جَموحا واحضارُهـا كَمُعْصَمَةِ السّعْدِ الموقَّدِ

فالشاعر بهذه الالفاظ المتتالية دون رابط، يُقدّم لنا تصويرا سريعا، موازيا لسرعة الفرس الموصوفة، فيصبح التركيب كلّه سريعا خاطفا، ذا نفس قصير، ينسجم مع المعنى المقصود .

وهكذا فإنّ التراكيب اللغوية "تكون بالغة التعقيد، والخصوصة حين تفيض بها النفوس الحيّة، وذلك لأنّ كلّ ما في النفس من قلق ونبض، وكل ما تحسّه الروح، ويغور به القلب، لا يجد له مسربا إلّا هذه الكلمات، وهذه التراكيب، وكلّ ما في هذه الاحوال النفسية، من خفاء، والتباس، منعكس، لا محالة على تلك التراكيب." (١)

ولا يقف الزمخشري عند بسط الشواهد الدالّة على قوّة التركيب وحسب، بل إنّه يأتي في أساسه بشواهد كثيرة، تمثّل موضوعا، أو مبحثا هامّا من مباحث علم المعاني - كما عند المتأخّرين - وقد أبرزت الشواهدُ مباحثَ: الاستفهام، والنداء، والتقديم والتأخير، والقصر .

---

(١) دلالات التراكيب، محمد محمد ابو موسى ص٢١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ط ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا الاستفهام فقد وردت عليه شواهد كثيرة ،تدلّ على عناية الزمخشري به عناية واضحة ، وقد كانت الهمزة ، هي أكثر أدوات الاستفهام استعمالا ،في شواهد الأساس ومن أمثلتها ،ما وقع في مادة " ص ف ح " : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا) (١) وفي مادة " ص ف و " : " أفأصفاكم ربّكم بالبنين) (٢) وفي مادة " ض ل ل " : " أإذا ضللنا في الأرض) (٣) وفي مادة " ل ت ت " : (أفرأيتم اللات والعزّى) (٤) وفي مادة " م ر ى " : (أفتمارونه على ما يرى) (٥) وفي " م ن ى " : (أفرأيتم ما تمنون) (٦) .

ومن أمثلتها من الشعر ،ما وقع في مادة " ج ش م " :

ألم تر أنّ المرء يجذم كفّه ... ويجشم من أجل الصديق المجاشما

وفي مادة " خ ط ط " :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني ... تحت العجاج فما خططت غباري

وفي " س د س " :

ألسنا أيقظ الاقوام أفئدة ... وأضرب الناس أخماسا لأعشار

وفي " ص ع ر " :

ألسنا نذود المعلمين لدى الوغى ... ذيادا يسلّي نخوة المتصاعر

وقد وردت شواهد أخرى ،استعملت فيها أدوات الاستفهام المختلفة ، ومنها : " كيف " كما جاء ذلك في مادة " س ب ع " :

وكيف أخاف الناس والله قابض ... على الناس والسبعين في راحة اليد

وكذلك في مادة " س ق ط " :

كيف يرجون سقاطي بعدما ... لفّع الرأس مشيب وصلع

---

(١) الزخرف الآية ٥ .
(٢) الاسراء الآية ٤٠ .
(٣) السجدة أول الآية ١٠ .
(٤) النجم الآية ١٩ .
(٥) النجم الآية ١٢ .
(٦) الواقعة الآية ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي " ش ع و " :

كيف نومي على الفراش ولمّـا ... تشمل الشام غارة شعـــواء

وفي " ط ر ف " :

وكيف بأطرافي إذا ما شتمتنـي ... وما بعد شتم الوالدين صلوح

وفي " ظ ه ر " :

كيف رأيتم طلبي وصبـــري ... والسيف عزّي والإله ظهـــري

ومنها - أيضا - " هل " وقد جاءت في مواد كثيرة مثل : " ز ع م " :

فقلت لأصحابي هل النار منكمو ... على زمع أو قصد أرض نريدها

و " ظ ع ن " :

تبيّن خليلي هل ترى من ظعائن ... لميّة أمثال النخيل المخارف (١)

و " ع و د " :

هل المجد إلّا السودد العود والندى ... ورأب الثّأى والصبر عند المواطن

ومنها : " ماذا " وقد وقعت في مادة " ع ش ر " :

ماذا يؤرّقني قدما ويسهرنـي ... من صوت ذي رعثات(٢) ساكن الدار

وكذلك في مادة " س د د " :

ماذا عليها وماذا كان ينقصها ... يوم الترحّل لو قالت لنا سـددا

وكذا تتناثر في الأساس بعض الشواهد على " أن " و " من " وغيرهما (٣) .

وأمّا النداء ، فقد كثرت شواهده في الأساس ، وكانت الياء أكثر أدوات النـداء شيوعا فيه ، ومن أمثلتها ، ما جاء في مادة " ف أ ر " :

إنّي لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا ... حتّى الممات وما سميت حسّانـا

لتسمعنّ وشيكا في ديارهـم ... الله أكبر يا ثارات عثمانـا

---

(١) المخارف : البساتين .

(٢) من صوت ذي رعثات : يعني الديك .

(٣) انظر مثلا مادتي " ب ر د " و " ط ل ع " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي " ع ل و " :

فيا حبّ ليلى أعل عني قتلتني وأعقب بانسان صحيح مكانيا

إن أسلوبي ،الاستفهام ،والنداء أسلوبان مؤثّران ،وجديران بالاحتفال في فن القول العربي ،وهما يومئان إلى المعنى إيماء ،ولا يصرّحان به تصريحا تاما ،وقد وقعا في بيت واحد في مادة " رفع " : هو :

أصاح ألم تحزنك ريح مريضة وبرق تلالا بالعقيقين رافع

فإنّنا نحسّ في هذا النداء ،وهذا الاستفهام ،روحا حزينة ،ذات ألم وشكوى ،ولولا النداء ،والاستفهام ، لَما كان التعبير موحيا بهذه الروح ،ذلك لأنّ التعبير كلّه قائم على هذين الفنّين - في هذا البيت - وهما يوحيان بالحيرة ،والألم العميق الذي يصدر عنه الشاعر ،في نداءه ،واستفهامه .

ومثل هذا يقال في البيت الوارد في مادة " س ل و " :

أإن غرّدت يوما بوادي حمامة بكيتَ ولم يعذرك بالجهل عاذر

وكذلك الاستفهام في مادة " م رض " :

أفي كلّ عام مرضة ثم نقهة وتنعي ولا تُنمى فكم ذا إلى متى

فإنّ في هذا الاستفهام ،قلقا ،وتحسّرا ،وتعجّبا ،واستغاثة ،وما أدّى إلى ذلك من معان يوحي بها البيت ،والجو النفسي الظاهر فيه .

ونلاحظ مثل هذا الحسّ الشجي ،في أسلوب النداء كذلك،فهو يثير في النفس أحاسيس يمدّها بها ،من مثل البيت في مادة " خ ى س " :

فيا ربّ ان خاست(١) بما كان بيننا من الودّ فابعث لي بما فَعَلَتْ صبرا

والبيت في مادة " ر د د " :

فيا بطحاء مكّة خبّريني أما ترتدّ تلك البقاع

---

(١) خاست : نكثت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا التقديم والتأخير، فقد جاء في الأساس ما يُنبّه إلى أثرهما في إيصال المعنى، والتأثير في نفس المتلقّي، وذلك لِما لهما من قيمة بيانية. وقد فصّل عبد القاهر الجرجاني القول فيهما، ودلّ على أهميتهما، ودحض رأى من يتنكّرون لهما، فهو يقول: "وقد وقع في ظنون النّاس أنّه يكفي أن يُقال: إنه قدّم للعناية، ولأنّ ذكره أهمّ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية به، ولِمَ كان أهمّ، ولتخيّلهم ذلك، فقد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه حتى، إنّك لترى أكثرهم يرى تتبّعه والنظر فيه، ضربا من التكلّف، ولم تر ظنّا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه." (١)

لذلك كان حرص الزمخشري على إيراد الشواهد المعبّرة عن أهمية التقديم، والتأخير كبيرا، ومن الأمثلة التي أوردها في الأساس، دون أن يصرّح بمراده، منها، ما وقع في مادة "ت خ م": (ملعون من غيّر تخوم الارض) (٢) فهذا من أحاديث النبي عليه السلام، وفيه قدّم الخبر "ملعون" على المبتدأ "مَنْ" ممّا أتاح للتركيب أن يكون أشدّ تأثيرا، وقوّة في أداء المعنى، والغرض المتوخّى من ذلك، فنجد هذه البشاعة في نفس السامع حين يواجَه بادئ ذي بدئ بكلمة، تحمل معنى اللعن، والطرد، وفيها الغضب، والغلظة، فيتساءل على مَنْ يقع هذا كلّه؟ ولِمَ ذلك؟ فإذا هو - بعد أن يُتمّ الحديثَ - يجد الملعونَ هو مَنْ يُغيّر تخوم الأرض، فيراه سببا عظيما، وعملا جسيما، يستحقّ مرتكبه هذا العقاب، لذلك يكون النهي عن تغيير التخوم، أوقع، وأشدّ من أن يجرى الكلام على الأصل الذى يعتمد سبيل الترتيب اللفظي، دون مراعاة الاستجابة الشعورية عند المتلقّي.

ونجد مثل هذا في قوله عليه السلام في مادة "خ د ع":
(يكون قبل الدجال سنون خدّاعة) (٣). إن هذا الحديث يثير حفيظة المتلقّي، حتّى ليتساءل في نفسه، عمّ سيكون قبل الدجّال، قبل إتمام الحديث، فيكون في حال أدعى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٨.
(٢) انظر الحديث في الفائق ج ١ ص ١٤٦.
(٣) ورد هذا الحديث في النهاية في غريب الحديث ج ٢ ص ١٤ على النحو الآتي:
(تكون قبل الساعة سنون خدّاعة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى الاجابة السريعة عن هذا التساؤل ،فإذا به يقع على ما يريد ، فيعلم أنّ المراد ، هو ما أخبر به النبي عليه السلام من أنباء الغيب الذى أوحى الله بها إليه ، فإذا استجابة هذا السلم ،تأتي حسب النسق الذى أدير فيه الكلام ،فتكون أبلغ وأشدّ ،ولو أُعيد الظرف إلى مكانه من الجملة لتغيّر مجرى الكلام ،ولفقد الحديث قيمته التأثيرية ، اذ سيرجع خبرا عاديا ،لا يجلب الانتباه .

ولعلّ التقديم من أجل التنبيه على أمر، يقع كثيرا في تقديم الضمير؛لما يوحيه من أهمّية في إبراز المقصود ،وقد وقعتُ على شواهد غيرِ قليلة تؤكّد هذا ، ومنها ما جاء في مادة " ب ج ل " :

هُمُ الخير المجيل لمن بغاه ... وهُمْ جمر الغضا لِمَن اصطلاها

وفي مادة " ف ر غ " :

هُمُ الحاملون الحسنون بقومهم ... إذا ما الدماء الفَرْغُ(١) هيب احتمالها

وفي " ل ح م " :

هُمُ لاحموني بعد فقر وعسرة ... كما لاحم العظمَ الكسيرَ جبائره

وفي " و ش ظ " :

هُمُ أهل بطحاوى قريش كليهما ... هُمُ صلبها ليس الوشائظ(٢) كالصلب

ففي تقديم الضمير في هذه الأبيات،أثر في تنبيه السامع لـ " هم " واختصاصهم بأمر دون سواهم .

وأمّا القصر،فقد شاعت شواهده في الأساس. وكانت أكثر الشواهد ظهورا القصر بـ " إنّما " و " إلّا " . ومن الأمثلة على " إنّما " ما وقع في مادة " ز ج ر " : (فإنّما هي زجرة واحدة) (٣) وفي مادّة " س ح ر " (إنّما أنت من المسحّرين) (٤) وفي " ن ج س " : (إنما المشركون نجس) (٥) وكذلك في مادة " ت ل ف " :

---

(١) الفرغ: الهدر .
(٢) الوشائظ: جمع وشيظة وهي الشظية .
(٣) النازعات الآية ١٣ .
(٤) الشعراء الآية ١٥٣.
(٥) التوبة الآية ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأتلف وأخلف إنما المال عارة وكله مع الدهر الذى هو آكله

وفي مادة " ج زى " :

وإذا جوزيت قرضا فاجزه إنّما يجزى الفتى ليس الجمل

وفي " ح ص ى " :

فلست بالأكثر منهم حصى وإنّما العزّة للكاثر

وأمّا " إلّا " فمن أمثلة استعمالها ، ما نجده في مادة " خ ش ى " : (ولا يخشون أحدا إلّا الله) (١) وفي " ن ق م " : (وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا) (٢) وفي " ج ذ م " :

وما كنت إلّا مثل قاطع كفّه بكفّ له أخرى فأصبح أجذما

وفي " خ ط ف " :

وما الدهر إلّا صرف يوم وليلة فَمُخْطِفَةٌ تنمي ومُقْصِفَةٌ تصمي

وفي " ر ج م " :

وما الحرب إلّا ما علمتم وذقتمو وما هو عنها بالحديث المرجّم

وفي " س و ق " :

وما الناس في شيء من الدهر والمنى وما الناس إلّا سيّقات المقادر

وفي " ش ر ق " :

وما العيش إلّا نومة وتشرّق وتمر كأكباد الجراد وماء

وفي " ع م ر " :

وما البرّ إلّا مضمرات من التقى وما المال إلّا معمرات ودائع

وهكذا فإنّنا نجد في الأساس شواهد رفيعة المستوى ، والقيمة تتضاءف إلى شواهد الدراسات البلاغية ، التي يصعب الوقوف عليها في كتاب واحد .

---

(١) الأحزاب الآية ٣٩ .
(٢) البروج الآية ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ٤ -
المجـــــاز

تتوزّع معاني أكثر المواد في الأساس في قسمين : قسم مختصّ بالمعاني الحقيقيّة وآخر مختصّ بالمعاني المجازيّة . ويدلّ على هذا عمل الزمخشري نفسه ، فهو - غالبا - ما يذكر المادة أولا ، فيذكر المعنى الأصلي لها ، ثم ينتقل الى المعاني المجازيـــة للكلمة ، مُظهرا ذلك بذكر ما يُبيّن به نوع المجاز ، فيقول - مثلا - بعد أن يذكر المعنى الأصلي للكلمة : ومن المجاز - وهذا هو الشائع في الأساس - أو يقول : ومن المستعار أو ومن الكناية ، أو ومن الكناية والمجاز ، أو ومن مجاز المجاز ، أو ومن الإسناد في المجاز ، وهكذا كلّما أراد أن يُنبّه إلى معنى مجازي .

هذا هو التقسيم الواضح الذي ينبّه فيه الزمخشري على الاستعمالات المجازية ، غير أنّه لا يلتزم ذلك في مواد الأساس كلّها ، بل قد نقع في الأساس على كثير من المواد التي يُدخل فيها الزمخشري المجازَ في قسمها الحقيقي وقد ينبّه على ذلك ، وقد لا ينبّه ، فهو - مثلا - يذكر الاستعارة في القسم الحقيقي من مادة " ج ب ب " : " وامرأة جبّاء : صغيرة الثديين : استعارة من الناقة الجبّاء " وفي مادة " س ر ب " : " ومنه : مَنْ أصبح آمنا في سربه : في منقلبه ومتصرّفه ، ويأبى تفسيره بالمال قوله : له قوت يومه . وروي بالكسر : أي في حرمة عياله : مستعار من سرب الظباء ، والبقر والقطا " وفي مادة " غ ز ر " : " غزر الماء غزرا ، وغزرت الناقة ، ثم استعير فقيل : مال وعلم غزير ، وأغزر الله مالـك " .

وقد يرجع الزمخشري في بعض المواد - في قسمها الحقيقي - إلى المعنـــى الأصلي للكلمة ، كأنْ يقول في مادة " ب و غ " : ارتفعت بوغاء الطيب : أي ريحه وأصلها ما يثور من الغبار ، ودقاق التراب " وفي مادة " ط ب ق " : " ويُقال : لو تطبّقت السمـــاء على الأرض ما فعلت والسموات طباق : طبقة فوق طبقة ، وطبّق المنق : أصاب المفصل فأبانها وسيف مطبق ، وحقيقة التطبيق : إصابة الطبق ، وهو موصل ما بين العظمين " . وفي مادة " ع ر ك " : " فلان ليّن العريكة إذا كان سلسا ، وأصله في البعير " وفي مادة " ك ر ع " : تكرّع الرجل : توضّأ ، لأنّه يغسل أكارعه وكرع في الماء ، وكرع : أدخل فيـــه أكارعه بالخوض فيه ، ليشرب ، والأصل في الدابة ، لأنّه لا يكاد يشرب إلّا بإدخـــال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكارعه فيه ،ثم قيل للإنسان : كرع في الماء : إذا شرب بفيه خاض ،أو لم يخض " .

وقد نجد كثيرا من الأمثال ،يوردها الزمخشري في القسم الحقيقي ،ومن ذلك ما جاء في مادة " ع ش و " : " عشّر رويدا ، وضحّ رويدا : أمر برعي الإبل عشيّا وضحى على سبيل الاناة ، والرفق ،ثم سار مثلا في الأمر بالرفق في كل شيء " وفي مادة " ث أ ط " : " ثأطه مدّت بماء " :الفاسد يُقرن بمثله ،لأنّ الحمأة إذا ما صبّ عليها ماء زادت فسادا " وفي مادة " ث ب ج " : " عارض فلان في قومه ثبجا ،وهو رجل من اليمن خالف بعض الملوك ،فحالبه عن نفسه ،وأهله دون قومه ،تُضرب مثلا لمن لا يهمّه أمر قومه " .

وكان الزمخشري يصرّح -أحيانا -بذكر ما وقع مجازا في القسم الحقيقي مثال ذلك ما قاله في مادة " أ ث ل " : " الأثلة : السمرة ،وقيل شجرة من العضاه طويلة مستقيمة الخشبة تُعمل منها القصاع ،والأقداح فوقعت مجازا في قولهم : نحلت أثلته : إذا تنقّصه " .

إنّ هذا التداخل يُظهر لنا عدم تحرّي الزمخشري الدقّةَ التامّةَ في فصله بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية ،ولا يعود ذلك إلى جهل الزمخشري ،وإنّما إلى حرصه على أن يذكر كلّ ما يرد في ذهنه من معان ، ولو أدّى ذلك إلى خلطه -أحيانا- بين المعاني في القسمين ،ولعلّه قد يطرأ عليه معنى مجازي في أثناء سرده للمعاني الحقيقية ،فلا يلبث أن يسلكه ضمن هذه المعاني ،وربما صادفته نكتة مجازية فلا يلبث أن يذكرها في أي قسم خَطَرَتْ له ،خشية أن تتفلّت منه فلا تعود إليه ثانية ،وربّما فعل ذلك ظنّا منه بقدرة القارئ على تمييز المعاني من بعضها .

وفي هذا كلّه ،توضيح لِما يعجب له الدكتور حسين نصار حين يرى الزمخشري يضع الاستعمال الواحد في المادة الواحدة مرّة في قسمها الحقيقي ،وأخرى في قسمها المجازي ،وذلك حين يجده يقول في مادة " ب و أ " : " وهم أكفاء سواء ، ودماؤهم بواء " ثم يقول : " ومن المجاز : الناس في هذا الأمر بواء : أي سواء " وكذلك يصنع في الامثال .(١)

(١) المعجم العربي نشأته وتطوّره ج ٢ ص ٧٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استعمل الزمخشري المجاز في أساسه بمعناه اللغوي العام، ولم يَرْمِ بـه إلى التمييز الدقيق بين المصطلحات البلاغية التي يتضمّنها. ولقد يكتفي بالإشارة إليها، كما صنع في مواد كثيرة، فهو - مثلا - يذكر الاستعارة في مادة " س ح ر ": " بلغ سحر الارض وأسحارها: أطرافها وأواخرها استعارة من أسحار الليالي " ويذكر الكناية كما في مادة " ب ر ش ": " قيل لخزيمة: الأبرش: كناية عن الابرص " ويذكر مجاز المجاز(١)، والمجاز في الإسناد (٢) وغيرهما.

وقد يأتي الزمخشري بشواهد كثيرة في أساسه، تشتمل على أنواع مجازية متعدّدة ولكنّه لا يُنبّه على ذلك، فهو يورد شواهد فيها استعارات لكنّه لا يُبيّنها، ومن ذلك ما نراه في مادة " ب س م ": " تبسّم البرق، وتبسّم الطلع: تفلقت أطرافه " وفي مادة " ث ك ى ": " ومن المجاز: بكت السحابة في أرضهم " وهو يورد أمثلة على المجاز العقلي، دون أن يُنبّه عليه، فيقول - مثلا - في مادة " د ف ق ": " ومن المجاز: ماء دافق: بمعنى ذو دفق " كعيشة راضية " وكذلك يذكر المجاز المرسل في مادة " ش ب ر ": " دون تعليق: " وشَبَرَه ما لا وأشبره: أعطاه، والشبر: العطاء. وهو من الشبر كما قيل: الباع، واليد: للكرم والنعمة " وهكذا يفعل في الامثال، إذ يذكرها في القسم المجازي، ولا يُبيّن أنّها من الاستعارة التمثيلية، مع علمه بأنّها كذلك، فمنها ما ورد في مادة " ت ل ع ": " ومن المجاز: ما يوثق بسيل تلعته: مَثَلٌ للكاذب " وفي مادة " ض ل ل " ومن المجاز: هو ضلّ أضلال: للداهي وأصله الحيّة التي لا تقبل الرقى " وكذلك يذكر شواهد للكناية في القسم المجازي دون إشارة إلى ذلك، فقد جاء في مادة " ث ن ى ": " هو طلّاع الثنايا: أي ركّاب المشاق ".

وإذن فليس من غرض الزمخشري أن يُفصّل القول في المصطلحات البلاغية فـي أساسه، وإنّما غايته أن يعرضها في شواهد تدلّ عليها، ونستطيع نحن - من بعدُ - أنْ نصل إلى الجوانب الجمالية فيها، بعد تحليلها، والوقوف على أسرارها.

---

(١) انظر - مثلا - مادة " ق ر ط " و " ق س و ".
(٢) انظر - مثلا - مادة " ظ أ ر ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوم المجاز

لم يذكر الزمخشري تعريفا صريحا للمجاز في أساسه ، ولكنّنا نستطيع أن نتبيّن ذلك مما أورده في مادة " ج و ز " ومن شواهد الأساس ، فهو يقول في مادة " ج و ز " : " وأرض مجازة : كثيرة الجوز ، وجزت المكان وأجزته وجاوزته ، وتجاوزته " فهذا الشرح يكاد يُعطينا معنى المجاز في اللغة ، وهو مجاوزة المكان إلى غيره ، وكذلك المجاز اللغوي ، فهو العدول باللفظ عمّا يوجبه أصل اللغة الى معنى آخر ليس له . (١) وقد وردت في الأساس ، شواهد كثيرة ، تجلو هذا المعنى ، ومنها ما جاء في مادة " ج ر ر " : " وأجرّ لسانه : منعه من الكلام ، وأصله من إجرار الفصيل ، وهو أن يشقّ لسانه ، ويشدّ عليه عود لئلا يرتضع ؛ لأنّه يجرّ العود بلسانه " وفي مادة " ح ب ل " : " وفرس طويل التّحبيل : تراد أرساغه ، وأصله في الطائر إذا احتبل " وفي مادة " ر ج م " : " ومن المجاز : رجمه : قذفه وشتمه ، ورجم بالظن ، ورجّم به : رمى به ثم كثر حتى وضعوا الرجم والترجيم موضع الظن فقالوا : قال ذلك رجما أى ظنّا ، وحديث مرجّم : مظنون . " وهكذا فإنّ الزمخشري يُبيّن في هذه المواد المعنى الاصليّ للكلمة ، ثم المعنى الذي آلت إليه فيما بعد ، من أثر الاستعمال ، ومما يزيد الامر وضوحا قوله في مادة " ر ج و " : " ومن المجاز : استعمال الرجاء في معنى الخوف والاكتراث يقال : لقيت هولا ما رجوته ، وما ارتجيته " وفي مادة " ر ض ع " : " ولئيم راضع ، ورضّاع : مبالغ في اللؤم ، وأصله : أن يرضع شاته ، لئلا يسمع صوت حلبه ، قالت لبانة الأسدية :

هجمة رضاع لئيم المزدق ... لا يطعم الضيف اذا لم يفسرق

ولمّا نقلوه إلى معنى المبالغة في اللؤم بنوا فعله على فَعُل فقالوا : رضع رضاعة فهو رضيع " .

ويُراعي الزمخشري في شواهده ، أن يكون هناك تناسبٌ بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول منه ، وذلك ظاهر في الشواهد السابقة ، ومما يعضدها ما ورد في مادة " ج ى ف " : " ومن المجاز قولهم للكسالى والجبناء : ما هؤلاء الجيف وما هم

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأجيف" فإنّ ثمّة وجهاً من المناسبة بين الكسالى والجبناء، وهم المتراخون ضعاف الحركة، والقلوب، لفقدانهم الهمّة والشجاعة، والجيف التي لا تستطيع الحراك، لفقدانها الروح أصل الحياة. وكذلك في مادة "ش و ك" ويُقال لِمَنْ ضَرَبَتْه الحمرة: قد ضربته الشوكة، لأن الشوكة وهي إبرة العقرب إذا ضربت إنسانا فما أكثر ما تعترى منه الحمرة." وفي مادة "ط ب خ": "وما في كلامه طباخ: فائدة وأصله اللحم الأعجف الذى ما فيه جدوى لطابخه".

نخلص من ذلك إلى أنّ المجاز عند الزمخشري: هو نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لم يكن له، ثم ينبغي في هذا النقل مراعاة ما بين المعنيين من مناسبة، واشتراك في الأمر المعني، بوجهٍ من الوجوه. وذلك هو المجاز الذى عرّفه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول" (١) وقال: "وإن شئت قلت: كلّ كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تجوّز بها إليه، وبين أصلها الذى وضعت له في وضع واضعها". (٢)

ولم يخرج البلاغيون المتأخّرون على هذا التعريف، يقول الدكتور أحمد مطلوب: "ولم يقسم الأوائل المجاز إلى أنواعه المعروفة، وعندما ألّف عبد القاهر كتابيه "دلائل الاعجاز" و"أسرار البلاغة" أخذ المجاز منزلته، واستقرت قواعده، وأصوله وقسمه إلى مجاز لغوى، ومجاز عقلي، وفرّق بينهما، وسار البلاغيون على خطاه" (٣)

وهذا مخالف لما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولي، فهو يقول: "إنّ المعنى الاصطلاحي المستقرّ للمجاز اللغوى، لم يكن قد بلغ مداه عندما كتب جارالله كتاب أساس البلاغة" (٤) وكان ممّا دفع الأستاذ الخولي إلى القول بهذا الرأى أنّه رأى الزمخشري

---

(١) أسرار البلاغة، ص ٣٢٥.
(٢) نفسه ص ٣٢٥.
(٣) معجم المصطلحات البلاغية ج ٣ ص ١٩٨.
(٤) أساس البلاغة، دار المعرفة ص ر.

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد فصل في أساسه بين المعاني الحقيقية ،والمعاني المجازية ، فجعل لكلٍّ منهما قسما خاصّا ،فكلّ ما ذكره في القسم الحقيقي فهو حقيقة ،وكل ما ذكر في القسم المجازي فهو مجاز ،ولم يُراعِ التداخل الذي بيّناه ،ثم رأى ابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ) يؤلّف مختصرا ،يختصر فيه ما أورده الزمخشري، على أنّه من المجاز،وسماه " غراس الأساس " (١) .

ويرى الخولي أنّ بين المؤلّفين اختلافا في تقدير بعض الالفاظ ،أهي من الحقيقة أم من المجاز ؟،وذلك لانّه رأى ابن حجر قد ترك بعض ما جعله الزمخشري في القسم المجازي ،فلم يسلكه في مختصره (٢) ، وقد أجاب الأستاذ مرتضى الشيرازي عن ذلك بقوله : " والحقيقة أنّ الزمخشري أتى باستعمالات الكلمة ،ومنها الحقيقة والمجاز، وجاء ابن حجر فذكر الاستعمالات المجازية فقط للكلمة ،دون أن يصرّح بشيء

---

(١) وهو مخطوطة في دار الكتب المصرية ،مكتبة طلعت تحت رقم ٣٦٣ لغة ،وقد سافرت مصرا،لأحصل عليها،فلم أتمكّن من ذلك ،ويُسمح لي بتصوير خمسَ عشرةَ صفحة فقط مع العلم أنّ الحدّ المسموح به إثنتا عشرة صفحة غيرَ أنّ وكيل الوزارة في دار الكتب ،أذِنَ لي بثلاث صفحات أخَر ،وقد وعدني الأستاذ كامل السوافيري بتصويرها كاملة وإرسالها إليّ، ومنذ ذلك الحين - من تاريخ ١٨/ ٤ حتّى تاريخ كتابة هذه الصفحة ١٩/ ٧- وأنا أترقّب وصولها ،ولكنّه قد سُمح لي بالاطّلاع عليها في دار الكتب اطّلاعا وحسب، وقد فعلتُ فوجدتها تقع في خمس وتسعين صفحة ،وهي مكتوبة بخطّ جيد ، وجاء في مقدّمتها : " وقد وقفت على كتاب أساس البلاغة للعلامة أبي القاسم جارالله ،فوجدته كتابا اشتمل على الكلمات الظاهرة ،والأمثال السائرة ،واقتصر على الالفاظ المستعملة ،وتجنّب المشكلة ،والمهملة ، وصدر ما وضع بإزاء الحقيقة ،وتلّى بما استعمل بطريق المجاز وفصل كلا منهما بأوضح امتياز، فجاء كتابا حافلا وجامعا كاملا ،فرأيت أنّ المهم منه ما تميّز عن الكتب المصنّفة في اللغة من تمييز الحقيقة من المجاز ،والتمكّن من اجتناب الإسهاب وارتكاب الإيجاز ،فرأيت الاقتصار فيه على ما جزم بأنّه وُضع على سبيل المجاز ،مكتفيا بالكتب المصنّفة في اللغة ،فإنّها أوعب لها من هذا الأساس،فَمَنْ لم يجد في هذا المختصر شيئا فليجزم بأنّه وُضع على سبيل الحقيقة مُعتمدا على هذا الإمام البليغ ،وسميت هذا المختصر غراس الاساس " ثم يبيّن ابن حجر المنهج الذي سار عليه في تأليف الغراس .

بعد ثلاثة أشهر من التاريخ المذكور أعلاه،وصلت المخطوطة إلى الجامعة الأردنية ممّا أتاح لي النظر فيها مرّة أخرى .

(٢) أساس البلاغة ،دار المعرفة ص ر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الأساس ولا عن مدلول الكلمة عند الزمخشري ،أهي عنده حقيقة أم مجاز ،أم تجمعُ الحقيقةَ والمجازَ معا ،وظنّ الاستاذ الخولي أنّ بين الزمخشري ،وابن حجر تعارضا ؛ لأنّ الأوّل لم يصرّح بكلمة : " ومن المجاز " فتكون المادة عند الزمخشري - على فهم الأستاذ الخولي - كلّها من الحقيقة ،ولأنّ الثاني ذكر المعاني المجازية فحسب مع أنّ الكثير من الاستعمالات المجازية للكلمة التي ذكرها ابن حجر مأخوذ من الأساس، وهذا يكفينا في معرفة أنّ اسقاط الزمخشري للفظة " ومن المجاز " -أحيانا -لا يعطينا حكما كلّيا بأنّ جميع استعمالات الكلمة حقيقي . " (١)

ومع اتّفاقي مع الأستاذ مرتضى الشيرازي في النتيجة التي توصّل اليها،إلّا أنّ لي رأيا في قوله هذا من وجهين : أمّا الأوّل ،فهو أنّه صحيح أنّ ابن حجر لم ينصّ صراحة على مدلول الكلمة عند الزمخشري ،ولكنّه ذكر أنّ الزمخشري قد " صدّر ما وضع بإزاء الحقيقة ،وتلّى بما استعمل بطريق المجاز وفصل كلّا منهما بأوضح امتياز " إنّ ابن حجر - بقوله هذا - يعتمد التقسيم الذي صنعه الزمخشري في أساسه ، موقناً بأنّه قد ميّز بينهما تمييزا قاطعا ،وهذا ما لم يرضَ به الأستاذ مرتضى ،وأمّا الوجه الثاني فهو قول الأستاذ الشيرازي بجمع الكلمة الواحدة الحقيقةَ والمجازَ معا ،وذلك مردود قطعا،لأنّ الزمخشري نفسه يرفض أن يكون اللفظ دالّا على معنيين حقيقي ومجازي في حال واحدة ،وهذا ما بيّنه في الكشّاف حين قال معقّبا على قوله تعالى :(ألم ترَ أنّ الله يسجد له مَنْ في السموات ومَنْ في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال ،والشجر والدواب ،وكثير من الناس) (٢) : " سمّيت مطاوعتها له فيما من أفعاله ، ويجريها عليه من تدبيره ،وتسخيره لها ، سجودا له تشبيها لمطاوعتها ،بإدخال أفعال المكلّف في باب الطاعة ،والانقياد وهو السجود الذي كلّ خضوع دونه ،فإن قلت: فما تصنع بقوله : (وكثير من الناس) وبما فيه من الاعتراضين : أحدهما أنّ السجود على المعنى الذي فسّرته به لا يسجده بعض الناس دون بعض ،والثاني أنّ السجود قد أُسند على سبيل العموم إلى مَنْ في الأرض،من الإنس ،والجنّ أوّلا . فإسناده إلى كثير منهم آخرا مناقضة ،قلت: لا أنظم كثيرا في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل ،

(١) الزمخشري لغويّا ومفسّرا ص ٣٨٣ .
(٢) الحج الآية ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنّما أرفعه بفعل مضمر يدلّ عليه قوله : يسجد أي : ويسجد كثير من الناس، سجود طاعة وعبادة ، ولم أقل أفسّر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة في حقّ هؤلاء ، لأنّ اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين ."(١)

لقد سار ابن حجر في منتصره على النهج الذي رسمه في مقدّمته ، وذلك حين قال : " فرأيت الاقتصار منه على ما جزم بأنّه وُضع على سبيل المجاز ، مُكتفيا بالكتب المصنّفة في اللغة فإنّها أوعب لها من هذا الأساس . فَمَنْ لم يجد في هذا المختصر شيئا ، فليجزم بأنّه وُضع على سبيل الحقيقة . مُعتمدا على هذا الإمام البليغ المطّلع ."(٢) فهو سيذكر في غراسه ما جزم الزمخشري بأنّه من المجاز ، غير أنّ ابن حجر - في حقيقة الأمر - يُخالف الزمخشري في مواد كثيرة ، فلا يوافقه في كلّ ما اعتبره الزمخشري من المجاز ، كذلك لم يرض بكل ما عدّه الزمخشري من الحقيقة . فمن الأمثلة التي توضّح ذلك أنّ الزمخشري يقول في مادة " أ ت ب " : " تزوّجها وهي في إتب . وهو ثوب يُشقّ فتلقيه الجارية في عنقها . قال الكميت :

وقد لقيت ظباء الأنس غادية ... من كل أحور بالمكي مؤتتب

ومن المجاز : هذا غلام قد تأتّب السلاح : أي لبسه . وتأتّب القوس : إذا أخرج منكبيه من حمالة القوس فصارت على كتفيه " . إنّ الزمخشري يذكر في هذه المادة معانيها الحقيقية أولا ، ثم معانيها المجازية . ولكنّنا إذا رجعنا النظر في غراس الأساس ، لا نجد لهذه المادة أثرا ، فقد أسقط ابنُ حجر مجازها كلّه ، فلم يتّفق بذلك مع الزمخشري (٣) . وهكذا يصنع في مواد كثيرة منها مثلا : " ب خ ل " (٤) و " ب ذ خ "(٥) و " ج ب ن "(٦) و " غ م أ "(٧) . وكذلك نجد ابن حجر في

---

(١) الكشّاف ج ٣ ص ٢٨ ، وانظر تفصيل ذلك في البلاغة القرآنية ص ٤٤٥ .
(٢) مخطوطة غراس الأساس المقدّمة ص ٢ .
(٣) السابق ص ٢ .
(٤) نفسه ص ٤ .
(٥) نفسه ص ٤ .
(٦) نفسه ص ٩ .
(٧) نفسه ص ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواد أخرى لا يُسقط المجاز كلّه ، بل يُسقط بعض العبارات التي أوردها الزمخشري على أنّها من المجاز ، ومثال ذلك ما وقع في مادة " أ ن ث " فقد قال الزمخشري بعد أنْ بيّن معانيها الحقيقية : " ومن المجاز : رجل مخنّث مؤنّث . وسيف أنيث ، ومثناث ومئناث ، ونزع أنثييه ثم ضربه تحت أنثييه وهما أذناه . والأنوثة فيهما من جهة تأنيث الاسم . ويقال : أنّثت في أمرك تأنيثا : لنت ولم تشدّد . وأرض أنثة : بيّنة الأناثة دميثة بيّنة الدماثة . " فإذا نظرنا في غراس الأساس وجدنا ابن حجر لا يذكر في غراسه عبارة : " نزع أنثييه ثم ضربه تحت أنثييه " ، لأنّه لا يعدّها مجازا كما عدّها الزمخشري (١) . ونقع على مثل ذلك في المواد : " ب ث ث " (٢) و " ب ح ر " (٣) و " ب خ ع " (٤) و " د م غ " (٥) . ويذهب ابن حجر إلى أبعد من هذا ، إذ يورد في غراسه عبارات تقع في القسم الحقيقي من موادّ الأساس ، مُخالِفا بذلك الزمخشري ومخالفا قوله بأنّه سيقتصر في مختصره على ما جزم الزمخشري بأنّه من المجاز . ومن ذلك أنّ ابن حجر أورد في غراسه العبارات الآتية :

" بينهم مؤاخنة قديمة " (٦)

" أخوّة الودادة أقرب من أخوّة الولادة " (٧)

" وشاك سوء للكامل الأداة " (٨)

" وعليه درع كالأضاة : أي كالغدير " (٩)

" في صوته بحّة . ورجل أبحّ الصوت " (١٠)

ولقد تختلف الآراء كثيرا ، وتتعدّد وجهات النظر ، إنْ ذهبنا نستقصي كلّ مجاز أورده الزمخشري ، وحاولنا أنْ نتبيّنه على وجهه الصحيح ؛ لأنّ " القطع بمثل هذه الأمور ألصق بمسائل العلم المُحقّة التي تخضع للأقيسة المتّفق على نتائجها . " (١١)

---

(١) مخطوطة غراس الأساس ص ٤

(٢) نفسه ص ٤ .

(٣) نفسه ص ٤ .

(٤) نفسه ص ٤ .

(٥) نفسه ص ٢٥ .

(٦) الأساس مادة " أ ح ن " وانظر الغراس ص ٢ .

(٧) مادة " أ خ و " وانظر الغراس ص ٢ .

(٨) مادة " أ د ى " وانظر الغراس ص ٢ .

(٩) مادة " أ ض أ " وانظر الغراس ص ٣ .

(١٠) مادة " ب ح ح " وانظر الغراس ص ٤ .

(١١) المعاجم العربية ، د . عبد السميع أحمد ص ١٤٥ ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدلالة المجازية في الأساس

يُعدّ الأساس مصدرا مهمّا من المصادر اللغوية، التي تُعنى بدلالات الألفاظ العربية، وتطوّرها التاريخي، ويراه الأستاذ مرتضى الشيرازي "الأساس لبعض المعاجم الحديثة التي ألّفها المستشرقون ومنها معجم فيشر الألماني،"(١) ويرى "أنّ منهج الزمخشري كان هو اللبنة الأولى لهذا المعجم التاريخي، ممّا يجعل للأساس ميزة السبق، والابتكار، والتجديد اللغوي"(٢). ويذهب الأستاذ فايز الداية إلى أنّ "وضع عمل الزمخشري في مجموعة المعجمات(٣)، أبعده عن الزاوية المناسبة له بين الدارسين، وهي زاوية التطوّر الدلالي".(٤) ويقول: "وإنّنا نرشّح هذا الجهد الدلالي للزمخشري في أساس البلاغة، ليكون ركيزه في مشروع المصنّف الدلالي العربي، الذي يجمع تعليقات اللغويين، والأدباء، والفلاسفة، والمتكلّمين، والفقهاء حول دلالات الألفاظ، ونرى أنّه يمثّل مجالا للتطبيق على علاقات المجاز والاستعارة إضافة إلى ما ذكره عن الكناية والمثل."(٥)

---

(١) الزمخشري لغويا ومفسّرا ص ٢٧١، ومعجم فيشر هو للمستشرق الألماني الدكتور أ. فيشر عضو مجمع فؤاد الأوّل للغة العربية، وهو معجم كبير الحجم، قصد مؤلّفه أن يضمّنه كلّ ألفاظ اللغة العربية الأدبية الخاصّة بزمان الجاهلية، وثلاثة القرون الأولى بعد الهجرة، ولكن د. أ. فيشر بعد أن جمع هذه الألفاظ، ووضع لها الرموز الخاصّة بها توفي قبل أن يتم ذلك العمل الضخم، وكانت وفاته سنة ١٩٤٩. انظر تفصيل ذلك كلّه في (معجم د. أ. فيشر وصفه ونقده) لعبد القادر المغربي، ص ٢٤ مقال في مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٢٤ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م. وانظر قول د. أ. فيشر في مقصده من معجمه في محاضر جلسات، مجمع اللغة العربية في القاهرة المطبوعة في مجلة المجمع ص ٢٦ سنة ١٩٢٧.

(٢) الزمخشري لغويا ومفسّرا، ص ٢٧١.

(٣) قدّم الدكتور ناصر الدين الأسد بحثا نُشر في مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعنوان (معاجم ومعجمات) انتهى فيه إلى أنّ الصواب في جمع معجم هو معاجم، وأنّ معجمات يخالف القياس واستعمال العرب وذوق جمهور المعاصرين معا. انظر مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة الجزء الخامس والعشرين ص ٧٦.

(٤) علم الدلالة العربي - النظرية والتطبيق دراسة تاريخية تأصيلية نقدية، د. فايز الداية، ص ٤٢٨، دار الفكر، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. ط ١.

(٥) السابق ص ٤٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد صادف عمل الزمخشري هذا ،عدّة انتقادات، تدور في مجملها ،على تقصير الزمخشري ،في فهم الدلالة المجازية ،فهما دقيقا . وكان الدكتور إبراهيم أنيس أبرز من أشاع ذلك ،فقد نظر في بعض موادّ الأساس،فوجد أنّ الزمخشري ،لم يلتفت فيها ، إلى جانب مهمّ ،في تطوّر الدلالة المجازية ،فهو -عند الدكتور أنيس- لم يُراعِ في أساسه انتقال الالفاظ من مجال إلى آخر، جيلا بعد جيل ،لأنّه يجهل هذه الظاهرة أو يتجاهلها حين يعرض للحقيقة ،والمجاز في أساسه .(١) ويضرب الدكتور أنيس بعض الأمثلة للدلالة على ذلك ،ففي رأي الزمخشري - عند الدكتور أنيس - أنّ الكتابة والقراءة ،والخلق والهجاء ،كلّها من المجاز ،ويقول : إنّ الدلالة الحقيقية للفعل كتب هو في مثل " كتب السقاء " أي " خرزه بسيرين " أي بمعنى الضمّ والجمع. أمّا الكتابة المألوفة فدلالتها مجازية ،وكان أيضا يقول : إنّ الدلالة الحقيقية للقراءة هي الجمع والضم ، وإنّ الدلالة الحقيقية للفعل خلق هي التي في مثل (خلق الحذّاء الأديم والخيّاط الثوب: قدّره قبل القطع.) (ومن المجاز خلق الله الخلق) وكان يزعم أنّ معنى هجا الحروف يهجوها : عدّدها ومنها عن طريق المجاز الهجاء بمعنى تعدّد المعايب) . "(٢) فالزمخشري - بهذا الصنيع عند الدكتور أنيس - " يفترض أنّ العرب قد عرفوا من الكتابة خرز السقاء ،قبل أن يعرفوها بمدلولها الشائع الآن ، وتلك قضيّة ليس من اليسير البرهنة عليها ،حتى مع علمنا بشيوع الأميّة لدى العرب القدماء ومع هذا فإذا سلّمنا جدلا بصحّة تلك الأصالة والفرعية في دلالة الكتابة ،فمن الواجب ألا يفوتنا أنّ الدلالة الحقيقية قد تتعدّد ،أي أنّ اللفظ ينحرف من مجاله الحقيقي إلى مجال مجازي ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفا ، ويُعدّ حينئذ من الحقيقة وتظلّ الدلالة القديمة ،ملازمة للفظ ،في حدود ضيّقة ،ويكون للفظ دلالتان ،واستعمالان وكلاهما من الحقيقة ،غير أنّ إحدى الدلالتين تكون أكثر شيوعا من الأخرى ،بل قد يصل الأمر إلى أن تصبح الدلالة القديمة من الندرة، وقلّة الاستعمال بحيث تسترعي الانتباه ، وتكاد تُعدّ بمثابة المجاز حين تقارن بالدلالة الجديدة الشائعة المألوفة .(٣)

---

(١) دلالة الالفاظ ص ١٣١ .
(٢) السابق ص ١٣١ .
(٣) نفسه ص ١٣٢ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أنّني لا أجد تفسيرا لِما ذهب إليه الدكتور أنيس في مادّة "ك ت ب"، إلاّ السهو غيرَ المقصود، مع صحّة تعليله لمفهوم الدلالة المجازية. أقول هذا؛ لأنّ الزمخشري لم يعدّ الكتابة بمعنى الخرز بسيرين من الحقيقة - كما ذهب الدكتور أنيس - بل يعدّها من المجاز، ويعدّ الكتابة بمعناها المألوف من الحقيقة، فهو يقول في مادة "ك ت ب": "كتب الكتاب يكتبه كتبة، وكتابا وكتابة وكتبا، واكتتبه لنفسه: انتسخه"، فهذا الكلام الذي أتى به الزمخشري هو في أول مادة كتب أي في القسم الحقيقي منها، ثمّ يقول بعد ذلك في القسم المجازي، وقد صرّح به: "كتب النعل والقربة: خرزها بسيرين" فهو يجعل هذا المعنى من المجاز وليس كما ذكر الدكتور أنيس. ومما يؤيّد ما ذهبتُ إليه أنّ الدكتور أحمد مختار قد بيّن ذلك في كتابه "البحث اللغوي عند العرب" وذلك حين قال: "وأهمّ ما يميّز هذا المعجم تفريقه بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية للكلمة، ويبدؤه بالحقيقي منها."(١) ويضرب الدكتور مختار مثالا على ذلك بما جاء في مادة كتب، ثم يقول: "وأهمّ ما نلاحظه على شرحه شيئان: ١- أنّه اعتبر الكتابة بمعنى النسخ حقيقة، وبمعنى الخرز مجازا والعكس ٢- أنّه ميّز المعاني الحقيقية والأخرى المجازية مع أنّ المجاز والحقيقة في حركة دائبة، يتبادلان مراكزهما."(٢)

ومع هذا يظلّ الزمخشري منتقدا في عمله في مادّة "ك ت ب" وما نبّه إليه الدكتور أنيس، ولكنّ الدكتور مجيد ناجي يفسّر لنا ظاهرة الفصل بين الحقيقة والمجاز في الأساس تفسيرا مختلفا عن سابقيه، رغم أنّه يتّفق معهما في مفهوم المجاز وتطوّره، ولكنّه يختلف في تقييمه لهذا الفصل الذي لجأ إليه الزمخشري في أساسه، فهو يرى أنّ الحكم على استعمال بعض الألفاظ للدلالة على بعض المعاني، بكونه استعمالا مجازيا، أم حقيقيا، إنّما هو أمر نسبيّ غير ثابت، "فقد يكون الاستعمال في بيئة مجازا، وفي أخرى حقيقة، ومثلما يتدخّل العرف البيئي في الحكم على مجازية الدلالة، يتدخّل

---

(١) البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، د. أحمد مختار عمر، ص ١٦٠، عالم الكتب، القاهرة ط٢، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(٢) السابق ص ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of London - Centre of Thesis Deposit

العنصر الزمني ، فما يُعتبر دلالة مجازية في " زمن قد يبلغ به عرف الاستعمال حدّ الحقيقة في زمن آخر بعد أن تُهجر الدلالة الأولى " . (١) ثمّ يقول الدكتور مجيد : " هذا هو الذي دفع بعض اللغويّين أن يشيروا في معاجمهم إلى الاستعمالين الحقيقي ، والمجازي ، للألفاظ ، كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة " (٢) ويضرب الدكتور مثلا على ذلك بمادّة " ذكاء " التي يقول فيها الزمخشري بعد أن يسرد معانيها الحقيقية : " ومن المجاز : ذكت الشمس ذكاء ومنه قيل لها : ذكاء وللصبح ابن ذكاء ، لأنّه من سوئها " ثمّ يقول الدكتور مجيد : " فهو إذن يقرّر أنّه قيل للشمس ذكاء وهذا يعني أنّها استعملت في الدلالة عليها ، وأنّ هذا الاستعمال بلحاظ أصل الوضع وفي عرف اللغويين الخاص مجازي ، كما ذهب إليه الزمخشري ، ولكنّه أصبح في الشمس حقيقة عرفيّة بعد أن شاع على الألسنة شيوعا نُسي معه أنّه منقول عن دلالة أخرى ، وتوهم أنّه في الدلالة هذا الجرم السماوي المنير على نحو الحقيقة ، كما نطلق عليه لفظة الشمس ، وهو إيّاها من الترادفات اللفظية ، وإلاّ لما احتاج الزمخشري إلى أن يشير إلى أن يسوق الدلالة بالوضع الأولى ، لأغلب ألفاظ معجمه ، إلى دلالاتها الثواني بحكم من الاستعمال ، والتي اعتبرها من المجاز بلحاظ الدلالة بالوضع الأولى " (٣) .

ومما يؤيد ذلك عند الدكتور مجيد ، أنّ الزمخشري " حينما يذكر لفظة " طيبي " مثلا لم يشر إلى أنّ من معانيها المجازية استعمالها في الدلالة على المرأة الحسناء ، أو الفتى الجميل ، في حين أنّ استعمالها على هذا النحو ممّا شاع ، وتداوله الشعراء المتقدّمون عليه ، ممّا يدل على أنّه يعني بالدلالات المجازية التي يذكرها لأغلب ألفاظ معجمه إنّما هي تلك الدلالات التي شاعت حتى نسي معها نقلها عن الدلالة بالوضع الأول وتباين من الناس على أنّها حقيقة عرفيّة " (٤) .

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، ص ٢٠٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .
(٣) نفسه ، ص ٢٠٧ .
(٤) نفسه ، ص ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يصل الدكتور مجيد ،إلى تفسير ،ينسجم مع غاية الزمخشري من تمييزه بين الحقيقة ،والمجاز،في أساسه ،فهو :" لا يقصد بتعرّضه في كتاب " أساس البلاغة " للمعاني المجازية بعد الحقيقة أن يقصر المجاز على تلك الألفاظ ،ولا أن يحجر على الناس التصرّف في تلك الألفاظ بنقلها الى معان لم ينقلها إليها العرب،وإنّما قصده التنبيه على جانب عظيم من أساليب البلغاء وتصرّفاتهم في المعاني ؛ ليقتدى بهم الناشئون ويتّخذوها سلّما ، يرتقون به إلى المرتبة العليا من مراتب البلاغة" . (١)

---

(١) المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية ، للشيخ محمد الخضر حسين ، ص ٢٦٥ ،مقال في مجلّة مجمع اللغة العربية ،القاهرة ،الجزء الأول سنة ١٩٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القيمة البيانيّة للمجاز

يرى الزمخشري أنّ اللغة العربية تنقسم قسمين : أحدهما الحقيقة وثانيهما المجاز، ويهمّه من ذلك أن يثبت أنّ القرآن قد نزل على العرب بلغتهم ، وفيه ما فيها من حقيقة ومجاز ، ويرى أنّ المجاز هو الوجه المستحلى عند العرب؛ لذلك فهو يقسم الأساس إلى قسمين - في الأغلب - حقيقي ومجازي ، ويوجّه عنايته إلى القسم المجازي؛ لأنّه الذي يعتدّ به عنده ، وقد صرّح بذلك في كتابه " الدر الدائر المنتخب " ولذلك حين قال : " لمّا كانت العربية تنقسم قسمين : أحدهما الظاهر الذي لا يخفى على سامعيه ، ولا يحتمل غير ظاهره ، والثاني المشتمل على الكنايات والإشارات ، والتجوّز وكان هذا القسم الثاني هو المستحلى عند العرب نزل القرآن بالقسمين ؛ ليتحقّق عجزهم عن الإتيان بمثله ، فكأنّه قال : عارضوه بأحد القسمين شئتم ، ولو نزل كلّه واضحا لقالوا : هلاّ نزل بالقسم المستحلى عندنا ، ومتى وقع في الكلام إشارة أو كناية ، أو استعارة أو تعريض أو تشبيه ، كان أحلى وأحسن "(١) .

وإذن فالمجاز هو القسم المستحلى عند العرب ، وهو كذلك عند الزمخشري وغيره من البلاغيين ، كالسكاكي ، والقزويني ، وابن الأثير الذي يزعم أنّ " المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة ، والبلاغة؛ لأنّه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة، التي هي الأصل ، أولى منه ، وهو فرع عليها ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنّه قد ثبت وتحقّق أنّ فائدة الكلام الخطابي هي إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل ، والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانا ".(٢) .

ولكنّنا ينبغي أن ننظر إلى الحقيقة والمجاز نظرة أشمل ، وأكثر انسجاما مع الواقع، إنّ هذا الحكم - أي أن المجاز أبلغ من الحقيقة دائما - لا يعطينا صورة صادقة في كل نصّ ، فإنّ للحقيقة - أحيانا - تأثيرا يكون أعمق ، وأجدى ، وإن كانا معا - الحقيقة

---

(١) الدّر الدائر المنتخب ، ص ٩ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، القسم الأول ، تحقيق ، د . أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمجاز - يُعدّان وسيلتين من وسائل التعبير ، ولكلٍّ منهما مجاله ، وتفوّقه : " وإذا كان للمجاز قيمته الجمالية من الخيال ومن تصوير المعقول في صورة المحسوس ممّا يعتبر وسائل إيحاء بالغة التأثير ، أقول : إذا كان للمجاز هذه القيمة الجمالية التي لا يستطيع أحد أن ينكرها ، فلا شكّ أنّ للحقيقة أيضا قيمتها الجمالية ، من البساطة ، والصدق والحرارة ، والعفوية التي نفتقدها كثيرا في التعبيرات المجازية ، والتي تجعل الحقيقة ذات نفسها أحيانا وسيلة إيحاء كبيرة بالغة التأثير " (١) . ويرى الدكتور حفني أنّ لمراعاة الحال دخلا في ذلك ، ويقول : " لو كانت الحقيقة دائما أبلغ من المجاز لكان كلام الله سبحانه حقيقة كلّه ، من حيث إنّه أبلغ الكلام ، ولكنّنا نرى الحقيقة ، والمجاز يتجاوران جنبا لجنب ، في القرآن الكريم " (٢) .

ويظلّ الأديب هو - وحده - الذي يمنح الكلمة - سواء أكانت حقيقة أم مجازا - قدرة على العطاء والاستمرار ؛ " إنّ الأديب ذا الشخصية القويّة المؤثّرة يخلق للكلمة باستخدامه لها مجالا واسعا ، ولا يلبث الكثيرون أن يجدوا أنفسهم واقعين في إسارها ، من حيويّة الشخصية وقوّتها ، تستمدّ الكلمة وهي بهذه الحيويّة ، والقوّة ، تؤثّر في الآخرين ، وتفرض نفسها عليهم " (٣) .

لذلك كان الزمخشري معنيّا في أساسه ، بانتقاء العبارات ذات الطاقة الفنّية العالية ، وربّما تكفي الإشارة العابرة - ههنا - في إثارة هذا الأمر فإنّ في الأساس كثيرا من التعبيرات المُلْفِتة ، وحسبنا التنبيه على بعضها حتى تكتمل الفكرة بالمثل :

لقد عرّف الزمخشري مادّة " غ ف و " بـ : " ألذّ من إغفاءة الفجر " ولم يزد في شرحه لهذه المادة على ذلك ، ولكنّ هذا التعبير يُرخي ظلالا واسعة ، نستشعرها ، ولا نكاد نصل إلى نهايتها ؛ لأنّها ظلال مُمتدّة ، وموحية في ذات اللحظة ، إنّ اللذّة

---

(١) التصوير البياني د . حفني محمد شرف ، ص ٢١٦ ، المطبعة العالمية ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
(٢) السابق ، ص ٢٢٠ .
(٣) الأدب وفنونه ، د . عزّ الدين اسماعيل ، ص ٣٣ ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٨ ، ط٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تخطر أوّل ما تخطر في صورة حسّية - أي من لذّة الطعام أو الشراب. . . . - ولكنّ هذه اللذّة تصبح في صورة ذهنية حيّة ، وذلك بعد أن نصلها بغيرها من الكلمات - كما التعبير السابق - فنصنع منها - حينئذ - لونا جديدا ، لم نعهده فيها من قبل أن تدخل التركيب . فنحن لا نحسّ حين نقرأ ألفاظ هذا التركيب مجرّدة بشيء غير مألوف ، بل إنّ اللفظة المجرّدة - ههنا - لا تعطينا أكثر من معناها الجامد ، في حين نستشعر الفارق الكبير عندما تنتظم مع غيرها ، فتتحد و اللذّة ، لذّة معنويّة تنبعث من السياق نفسه ؛ إذ إنّ " ألذّ " التي فيها معنى حسّي ، وهي غير مرتبطة ، بما يليها من ألفاظ التركيب كلّه ، تنتقل إلى صورة رائعة - بما ضمّها - بعد أن تتّصل بشبه الجملة : " من إغفاءة " تلك الارتخاءة المستدّة التي تبعث على الكسل ، و " الفجر " ذلك اللفظ المشعّ الذي يوحي إلى النفس بصور مثيرة تفسّر هذا المعنى - معنى الفجر - بكلّ دقائقه وإن كانت لا تحدّده تحديدا نهائيا . بعد ذلك - أن بعد اكتمال التركيب - تتبادر إلى أذهاننا صورة متكاملة ، ولكنّها صورة متخيّلة ، هي صورة ذلك النائم في هذا الجو الهادئ ، المنعش ، وكلّ ما حوله ساكن راقد . وفي اختيار " إغفاءة الفجر " دون غيرها من ساعات النوم المحبّبة ، دلالة أقوى ، وعمق أكثر ؛ لأنّ النوم في هذه الساعة أعذب ، وأحلى ، من أي وقت آخر ؛ ولذلك فإنّه يشقّ على الإنسان أن ينهض فيشعر في هذه الساعة ، وكذلك ، فإنّ في اختيار كلمة " إغفاءة " توفيقا ظاهرا ؛ لأنّنا لو وضعنا مكانها كلمة " غفوة " في هذا التركيب - مثلا - لذهبنا برونق العبارة ، ولقتلنا روح الفنّ فيها .

وعلى هذا النحو يمكن أن ننظر في كثير من عبارات الأساس ، ومن هنا تتجلّى لنا القيمة البيانية العظيمة ، التي يزخر بها هذا الأساس ، فهو بمنهجه المتميّز يعدّ بعثا لكثير من ألفاظ اللغة العربية ، إذ لا يقف المؤلّف عند سرده للألفاظ مجرّدة عن سياقها ، بل إنّه يسلكها في تراكيب تهدي إلى معناها ، كما رأينا ، وممّا يؤكّد ذلك - والأساس كلّه دليلنا - ما أورده الزمخشري في شرح مادّة " خ ف ف " ، فهو بعد أن يسرد معانيها الحقيقية ، يقول : " ومن المجاز : خفّ حاله ورقّت ، وأخفّ فلان : صار خفيف الحال ، وأقبل فلان مخفّا ، وفاز المخفّون ، وفي الحديث : (إنّ بين أيدينا عقبة كؤودا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يجوزها الاّ المخفّ) (١) وخفّ القوم عن أوطانهم خفوفا ، وهو خفيف العارضيـــن، وهو خفيف ، وفيه خفّة وطيش ، وخفيف الروح : ظريف وخفيف القلب : ذكيّ ، وخفّ فـــلان على الملك إذا قبّله واستأنس به ، وغلام خفّ : جلد ، وخفّ فلان في عمله ، وفي خدمتـــه وخفّ فلان لفلان : أطاعه وخفّت الأتن للفحل : ذلّت له ، وانقادت ، واستخفّه الهـــم والفزع ، واستخفّ به : استهان به ، وماله خفّ ولا حافر ولا ظلف وجاءت الإبل على خـفّ واحد ، وعلى وظيف واحد : إذا تبع بعضها بعضا كالقطار ، ووقعن في خفّ من الأرض وهو أطول من النعـــــل " .

هذا هو منهج الزمخشري في أغلب موادّ الأساس ، وهو منهج قائم على شرح المفردة بنظمها في تراكيب ، قد تقلّ أو تكثر ، وذلك حسب استعمالات اللفظ في الحياة اليومية، وهذا كما يقول الأستاذ أمين الخولي : " من أشدّ ما يكون ضرورة ، لإمكان كسب الـــذوق الفنّي للغة ، والاتّصال الشعر بآثارها الأدبية الكبرى ، والتمكّن من الشعور بما أحسّـــه أصحاب هذه الآثار ، وما رموا اليه حين نظموها ، ولا غرو فإنّ هذا التذوّق أوّل ما يقـــوم على وجدان وقع اللفظة ، والشعور الفنّي بجرسها ، ثمّ بدلالتها المعنوية ، وإثارتهـــا النفسية ، ويلي هذا خصائص النظم وسرّ التركيـــب " (٢) .

---

(١) الفائـــق ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .

(٢) فنّ القول ، أمين الخولي ، ص ١٢٣ ، دار الفكر العربي - القاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجـــــاز العقلـــــي

أورد الزمخشري شواهدَ غيرَ قليلة في أساسه ،تدلّ على اهتمامه بالمجاز العقلي، وقد توزّعت هذه الشواهد في مواد كثيرة ،ومنها ما وقع في مادة " رغ ض ": " قـــــال ابـن أحمـــــــر :-

إذا شرب الرغّـة قال أوكـى على ما في سقائك قد روينـا

من أرنى بالأرض: أدبّ بها فلم يبرح ؛ لأنّها تثقل شاربها فتربضه ،وصفت بفعل شاربها مجازا " وقال في مادة " ر و ب ": " وقال آخـــــر:

طوى الجراد مروب ابن عشجـل لا مرحبا بذا الجراد المقبل

أي وقع على رعيه فأكله فجفّت ألبان إبله فطوى مرويه ،وله موقع حسن في الإسناد المجازيّ وفي مادة " ز ر ع ": " وزرع الزارع الأرض: من إسناد الفعل إلى السبب مجازا " وفـــي مادّة " ظ أ ر ": " ومن المجاز في الإسناد ظأرتُ: اتّخذت ظئرا لولـــدي " .

ويُلاحظ أنّ الزمخشري قد سمّى المجاز العقلي أكثر من تسمية ،ولكنّها جميعـــا ترجع إلى معنى واحد ،وقد علّل ابن يعقوب المغربي (- ١١١٠هـ) هذه التسميات فقال :" ومن الإسناد مطلقا : مجاز عقلي ؛ لأنّ حصوله بالتصرّف العقلي ،ويُسمّـــى مجازا حكميا ؛ لوقوعه في الحكم بالمسند على المسند إليه . ويُسمّى أيضا مجازا فـــي الإثبات ؛ لحصوله في إثبات أحد الطرفين للآخر وسلب حقيقته ،ومجازه تابعـــة لما يحق في الاثبات -كما تقدّم - ويُسمّى أيضا إسنادا مجازيا نسبة إلى المجاز بمعنى المصدر؛ لأنّ الإسناد جاوز به المتكلّم حقيقته وأصله إلى غير ذلـــك "(١) .

ونستدلّ من الشواهد بعضا من علاقات المجاز العقلي لم يُصرّح بها الزمخشري، وأكثر هذه العلاقات ظهورا في الأبيات علاقة المفعولية ،فقد ورد شاهدا في مواد

---

(١) مفروح التلخيص، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ،لابن يعقوب المغربي، ج ١ ص ٢١٢ ،عيسى الحلبي وشركاه، مصر ،؟

منها ما نتبيّنه في مادة " أ م ن " : " ومن المجاز : نزل أمين القوى ، وناقة أمون : قويّة مأمون فتورها جعل الأمن لها ، وهو لصاحبها ، كقولهم : ضبوث وحلوب " وكذلك نجد ها في مادّة " خ ف ض " : " وقولهم : عيش خافض : كعيشة راضية " (١) ومثلها ما جاء في مادّة " د ف ق " : " ومن المجاز : ماء دافق بمعنى ذو دفق كعيشة راضية " وفي مادة " غ م ن " : " ولكم الضامنة من النخل والتي في جوف البلد ، والضامية ما في ظاهره ، وهو كالعيشة الراضية " وفي مادّة " ق و ب " : " ومن المجاز في مثل : برئت قانية من قوب : بيضة من فرخ وهي كعيشة راضية " . وكلّما ذكر الزمخشري " هو كالعيشة الراضية " فإنّما يعني بذلك ما بيّني للفاعل ، وأسند إلى المفعول به الحقيقي ، لأنّ الراضية في قوله تعالى : (في عيشة راضية) مبنيّة للفاعل وحقيقتها مرضيّة وتلك هي العلاقة المفعولية .

وقد أشار الزمخشري في مادّة " غ م د " إلى علاقتي الفاعلية والمفعولية معا ، وذلك إذ يقول فيها : " وركّي غامد : ماؤه مغطّى بالتراب ، وعكسه ركّي مبد ، وهو من باب عيشة راضية " وكذلك في مادة " هـ و ل " : " ومن المجاز مكان مهول : فيه هول ، وتقول : هذا البلد لو لم يكن مهولا ، لكان مأهولا وهو عكس قولهم : سيل مفعم " .

وقد ظهرت - في الأساس - علاقات أخرى من علاقات المجاز العقلي : كالزمانية والمصدرية . فمثال الأولى ما ورد في مادّة " أ ر ز " : " ومن المجاز : بتنا بليلة آرزة ، يأرزمّ فيها ؛ لشدّة برد ها " ومثال الثانية ما ورد في مادّة " ز و ل " : " وزيل زويله وزواله : إذا استفزّ من الفرق ، وهو من إسناد الفعل إلى مصدره " .

وقد بيّن الزمخشري هذا كلّه في تفسيره الكشّاف ، وذلك حين عرض له في تفسير بعض الآيات الكريمة ، ومنها قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم) (٢) فقال الزمخشري : " ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله ، فيكون الختم مسندا إلى اسم الله

---

(١) القارعة ، الآية ٧ .
(٢) البقرة أول الآية ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على سبيل المجاز ،وهو لغيره حقيقة ،تفسير هذا أنّ للفعل ملابسات شتّى يلابس الفاعل ،والمفعول به ،والمصدر ،والزمان ،والمكان ،والسبّب له ،فإسناده إلى الفاعل حقيقة ،وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمّى استعارة،وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل ،كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته ،فيستعار له اسمه ،فيقال في المفعول به : عيشة راضية ،وماء دافق ،وفي عكسه سيل مفعم ،وفي المصدر شعر شاعر ،وذيل ذائل ،وفي الزمان نهاره صائم ،وليله قائم ،وفي المكان : طريق سائر، ونهر جار ،وأهل مكّة يقولون : صلّى المقام ،وفي المسبّب بنى الأمير المدينة ، وناقة ضبوث وحلوب ،وقال : إذا ردّ عافي القدر من يستعيرها (١) . فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة ،أو الكافر ؛ إلاّ أنّ الله سبحانه لمّا كان هو الذي أقدره ومكّنه أسند إليه الختم كما أسند الفعل إلى المسبّب " (٢) .

وقد عرّف الزمخشري المجاز العقلي تعريفا محدّدا ،بعد قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) (٣) فقال : " فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ قلت هو من الإسناد المجازي : وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبّس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبّست التجارة بالمشترين " (٤) .

وربّما فُهم من قول الزمخشري المذكور آنفا ،في أنّ الفعل " قد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمّى استعارة " أنّه لا يفرّق بين المجاز العقلي والاستعارة ،فذلك ما يوحي به كلامه السابق ،ولكنّه يبيّن الفرق بينهما في موقع آخر من الكشّاف ،وذلك حين يعرض لقوله تعالى : (إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون) (٥) فيقول : " فإن قلت : كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته،

---

(١) هذا الشاهد ورد أيضا في مادّة " زبن " .
(٢) الكشّاف ج ١ ،ص ٢٨ .
(٣) البقرة ،الآية ١٦ .
(٤) الكشّاف ،ج ١ ،ص ٢٧ .
(٥) النمل الآية ٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أسنده الى الشيطان في قوله : (زيّن لهم الشيطان أعمالهم)(١)؟ قلت : بين الإسنادين فرق وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده الى الله عزّ وجلّ مجاز وله طريقان في علم البيان : أحدهما أن يكون من المجاز الذي يسمّى الاستعارة ، والثاني أن يكون من المجاز الحكمي" (٢) ثم يأخذ الزمخشري بتوضيح ذلك فيقول : " فالطريق الأوّل أنّه لمّا متّعهم بطول العمر ، وسعة الرزق ، وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم ، وإحسانه اليهم ذريعة إلى اتّباع شهواتهم وبطرهم ، وإيثارهم الروح والترف ، وتفارهم عمّا يلزمهم فيه التكاليف الصعبة ، والمشاق المتعبة فكأنّه زيّن لهم بذلك أعمالهم ، وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) ، والطريق الثاني أنّ إمهاله الشيطان ، وتخليته حتى يزيّن لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه ، لأنّ المجاز الحكمي يصحّحه بعض الملابسات"(٣)

وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أنّ عبد القاهر الجرجاني كان هو مكتشف هذا المجاز(٤) . ولكنّ ذلك يخالف الواقع ، لأنّ المجاز العقلي كان : " موضع اهتمام النحاة والمتكلّمين والبلاغيين منذ بداية الاشتغال بعلوم النحو والكلام والبلاغة "(٥) بيد أنّ المجاز على ضربين : من طريق اللغة ، ومجاز من طريق المعنى والمعقول ، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا " اليد " مجاز في النعمة و " الأسد " مجاز في الإنسان ، وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة ، لأنّا أردنا أنّ المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة ، وأوقعها على غير ذلك ، إمّا تشبيها وإمّا لملابسة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه "(٦) ثم يقول : " ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازا من طريق المعقول دون اللغة

---

(١) الأنفال الآية ٤٨ .
(٢) الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .
(٣) السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .
(٤) البلاغة ، تطور وتاريخ ص ٢٦٤ .
(٥) البلاغة القرآنية ص ٢٢٣ وقد فصّل الدكتور محمد أبو موسى في ذلك مما يغنينا عن تتبّع المراحل التاريخية التي مرّ بها المجاز العقلي ، وانظر أيضا المجاز في البلاغة العربية ص ١١ وما بعدها .
(٦) أسرار البلاغة ص ٣٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك أنّ الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصحّ ردّها إلى اللغـــــة، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها ؛لأنّ التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلّـــــم" (١) .

ولقد نشأ جدال طويل بين الباحثين - قديما وحديثا - حول وجود المجـــاز العقلي في البلاغة العربية ،أو عدم وجوده ،فقد أنكره السكاكي ،وسلكه في الاستعـــارة بالكناية ، وجعل المجاز كلّه لغويّا (٢) ، كما نفى العلوي أن يكون هناك مجاز عقلـــي بل إنّ المختار عنده " أنّ المجاز لا مدخل له في الأحكام العقلية ،ولا وجه لتسميـــة المجاز بكونه عقليّا ؛ لأنّ ما هذا حاله ،إنّما يتعلّق بالأوضاع اللغوية دون الأحكـــام العقلية "(٣) ثم إنّ للدكتور منير ناجي رأيا وجيها في ذلك ،فهو يقول : " ونحـــن لا ننكر كون العقل هو الذي يميّز ويعيّن من يستحقّ إثبات الفعل له ،ففي قولنا :قطـع السكّين ،فإنّ العقل هو الذي يحكم بعدم قدرة السكين وحده على القطع مجرّدا عمّـن أعمله فيـه "(٤) ثم يستدرك الدكتور منير فيقول :" بيد أنّ هذا خارج عن دائـــرة المجاز وإنّما هو من قبيل الحقيقة الادّعائية التنزيلية ،فالمتكلّم فيها إنّما نزّل ما أسنـــد إليه الفعل منزلة ما يستحق مثل هذا الإسناد ،ولم يرد به المتكلّم من لفظ الأداة الإنسان الذي استعملها وكل ما في الأمر أنّه نزّل السكّينة منزلة الفاعل على نحو الحقيقـــة الادّعائية " (٥) ويرى الدكتور كامل حسن البصير أنّ هذا الفرق بين المجاز اللغـــوي والمجاز العقلي هو مسألة نظرية لا تستند إلى طبيعة المجاز، ولا تستضيء بشواهـــده(٦) وينتهي الى " أن المجاز سواء أكان مرسلا أم مجازا بالاستعارة قائم على أســـاس البدلية وإحلال كلمة محل كلمة أخرى في أداء مدلول مقصود ؛ لذلك فالمجاز بشتّـــى

---

(١) السابـــق ص ٣٧٦ .
(٢) مفتاح العلوم ص ٤٠٠ وما بعدها ،وانظر رد القزويني على ذلك في التلخيص، ص ٢٥٢ وما بعدهـــا .
(٣) الطـــراز، ج ١ ،ص ٢٥٠ .
(٤) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربيـــة ،ص ٢١٠ .
(٥) السابـــق ،ص ٢١٠ .
(٦) بناء الصورة الفنية ص ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضربه يرسم صورة بديلة تنهض بالدلالة على ما لم يرد في التعبير، وأيّا كان وجه التفريق بين المجاز اللفوي بفرعيه المجاز المرسل والمجاز بالاستعارة، والمجاز العقلي، فإنّ المجاز العقلي في مذهبنا صورة بديلة عقليّة "(١).

ولعلّ في هذا حسما للخلاف القائم بين الباحثين، وما أغنانا عن تكلّف التأويلات التي تسوّغ لنا ما نذهب إليه، وحسب الباحثين أن يقفوا على القيمة البيانية لهذا الفن الذي يعدّه عبد القاهر الجرجاني كنزا " من كنوز البلاغة ومادّة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، في الإبداع، والإحسان، والاتّساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعا مصنوعا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبا من الأفهام " (٢).

---

(١) السابق، ص ٣٠٨.
(٢) دلائل الاعجاز، ص ٢٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المثـــــــل

تكثر الأمثال في أساس البلاغة كثرة تدلّ على اعتداد الزمخشري بها ، واعتمادهـا أساسا مُبيناً ، من أسس البلاغة العربيّة . وهو في كثير منها يُرجعها إلى الأصل الـذي ترجع إليه ، ثم يُبيّن كيف نُقلت هذه الأمثال عن هذا الأصل ، فيقول - مثلا - في مادّة "ج ر و" : " ضرب عليه جروته ، وضرب على الأمر جروته : إذا وطّن عليه نفسه ، وكان أصله : أنّ قانصا كانت له كلبة يصيد بها ، فضربها على الصيد ، فقيل : ضرب عليه جروته : فسيّر مثلا" ، وكذلك يفعل الزمخشري في مادّة " ذ ب ب" : " انظر إلى ذبابي أذنيه : وهما ما حدّ من أطراف أذني الفرس والأصل الذباب الطائر ، وهو مثل في القلّة " . وفي مادّة " ع ى ر " : " يقـال للموضع الذي لا خير فيه : كجوف العير ، وهو الحمار ؛ لأنّه ليس في جوفه ما ينتفـــــع بـــــه " .

وقد يعرض إلى الناحية البلاغيّة في بعض الأمثال ، ومن ذلك ما قاله في مـادّة " ف ر خ " : " قالوا : فلان : فريخ قومه : للكرم منهم : شبّه بفريخ في بيت قوم يربّونـــه ، ويرفرفون عليه ، وللمعاني متصرّفات ومذاهب ألا تراهم قالوا أعزّ من بيضة البلد ، وأذلّ من بيضة البلد ، حيث كانت عزيزة ؛ لترفرف النعامة عليها ، وحضنها لها ، وذليلة ؛ لتركهـا إيّاها ، وحضنها أخرى " وقال في مادّة " ف ر ش " : " ما هو إلاّ فراشة : للخفيف الـرأس يشبّه بواحدة الفراش ، وهو مثل في الخفّة والحقـــــارة " .

والأمثال السائرة عند البلاغيين استعارات تمثيليّة ، وهي كذلك عند الزمخشـري ، فقد تبيّنا أنّ المثل له حقيقة يرجع إليها ، ثم هو بعد أن ينقل عن هذه الحقيقة ، يستعار لصفة مشابهة للصفة التي يمثلها ، يصبح - حينئذ - استعارة تمثيليّة ، لا يصحّ أن يغيّر فيها شيء ، وإلاّ أفسدت الأصل الذي قيل فيه المثـــــل (١) .

وقد ذكر الزمخشري - في أساسه - بعض الأمثال التي تقع تحت الاستعارة صراحة ومنها ما قال إنّه من المستعار ، وذلك في مادّة " ش ق ق " : " شقّ فلان عصا المسلمين ،

---

(١) التلخيـــص ص ٣٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مادّة " ع ر ق ب " : " أكذب من عرقوب يشرب " و " ع س ل " : " ما يعرف الخلان مشرب عسله " فقد صرّح الزمخشري أنّ الامثال في هذه المواد من المستعار أي أنّها استعارات تمثيلية .

ولذلك لا أرى وجها لما ذهب إليه الدكتور نصّار - ناقلا عن الدكتور مصطفى ناصف - في أنّ الزمخشري يخلط بين المصطلحات البلاغيّة فهو عندما يعدّ الاستعارة التمثيلية تمثيلا ، ويعدّها مرّة ثانية مثلا ثم يسمّيها في الثالثة تمثّلا ، وقد يُعبّر عنها بالتخييل ، وبالمجاز ، فذلك في رأيهما اضطراب واضح في تحديد المصطلح، وخلط لم يكن لصاحبه بصيرة في أمره (١) . وكان الدكتور نصّار قد أشار إلى أنّ الزمخشري " كان يصدّر القسم المجازي بعنوان يفصله عن الحقيقي ، وتتغيّر عبارة هذا العنوان كثيرا ، فكانت في أكثر المواد " ومن المجاز " أي الاسم العام . وكانت في بعضها " ومن الكناية " وفي أحيان أخرى وخاصّة في الجزء الثاني " ومن المستعار " . ولم يكن في كل عنوان من هذه العناوين يريد فصل المجاز عن الكناية ، ولا فصل هذين عن الاستعارة ، بل كانت العناوين الثلاثة مترادفة بمعنى المجاز " (٢) . فهو بقوله هذا ينقض ما ذهب إليه من بعدُ ، حين زعم أنّ الزمخشري يخلط بين المصطلحات البلاغية في أساسه، وقد نبّه إلى هذا التناقض الأستاذ مرتضى الشيرازي (٣) .

ولقد بيّن عبد القاهر الجرجاني - من قبلُ - ما كان الدكتور نصّار أنّه خلط واضطراب في تحديد المصطلح ، وذلك حين قال عبد القاهر مُعلّقا على المثل " أراك تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى " : " وذكر أبو أحمد العسكري أنّ هذا النحو من الكلام يسمّى المماثلة ، وهذه التسمية توهم أنّه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل وليس الأمر كذلك كيف وأنت تقول : " مثلك مثل من يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى (٤) " ، وكان

---

(١) المعجم العربي نشأته وتطوّره ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .
(٢) السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .
(٣) الزمخشري لغويّا ومفسّرا ، ص ٢٨٢ .
(٤) أسرار البلاغة ، ص ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزمخشري نفسه قد صرّح في الكشّاف بأنّ " المثل مستعار للصفة التي فيها غرابة " (١) .

فالمثل قد يسمّى استعارة تمثيلية ، وقد يسمّى تمثيلا ، أو مماثلة ولكن متى يكون المثل ، أو التمثيل استعارة تمثيلية ؟ يقول عبد القاهر : " إنّما يكون التمثيل مجازا إذا جاء على حدّ الاستعارة " (٢) . ويقول : " وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء فإنّك إذا قلت : أراك تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحيّر والتردّد ، كان أبلغ لا محالة من أن تجري على الظاهر فتقول : قد جعلت تتردّد في أمرك ، فأنت كمن يقول : أخرج ولا أخرج فيقدّم رجلا ويؤخّر أخرى " (٣)

وقد أيّد ذلك البلاغيّون من بعده ، فقال السكاكي " ثم إنّ التشبيه متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة لا غير سمّي مثلا ، ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تغيّر " (٤) .

---

(١) الكشّاف ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .
(٢) دلائل الاعجاز ، ص ٦٦ .
(٣) السابق ، ص ٧٣ .
(٤) المفتاح ، ص ٣٤٩ وانظر التلخيص للقزويني ، ص ٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القيمة البيانيّة للمثـــــل

أكثر العرب من ضرب الأمثال ،والاحتفال بها ،وقد أشار الجاحظ إلى سبـــب ذلك حين قال :" وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدّة أمثال سائـــرة، ولم يكن الناس جميعا ليتمثّلوا بها ،إلاّ لِما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلـــم على الشاهد والمثـــل " (١) .

ولقد وقف عبد القاهر الجرجاني على وظيفة المثل البيانية ،فهو يرى" أنّ المعنى إذا أتاك ممثّلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ،وتحريـــك الخاطر له ،والهمّة في طلبه ،وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر ،وإباؤه أظهـــر، واحتجاجه أشد ، ومن المركوز في الطبائع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له ،والاشتياق إليه ،وبمعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالمزيّة أولى ،فكان موقعه من النّفس أجـــل وألطف ،وكانت به أضنّ وأشغـــف " (٢) .

وقد أفرد الزمخشري كتابا خاصّا للأمثال العربيّة ،وبيّن في مقدّمته أهمية المثـل، ووظيفته في الحياة عامّة ،وفي الحياة الأدبية خاصّة ،وقد سمّى هذا الكتاب بـ"المستقصى في أمثال العرب" . وقال في مقدّمته عن الأمثال بأنّها :" قصارى فصاحة العرب العربـاء، وجوامع كلمها ، ونوادر حكمها ، وبيضة منطقها ،وزبدة حوارها ،وبلاغتها التي أعربـــت بها عن القرائح السليمة ،والركن البديع إلى ذرابة اللسان ،وغرابة اللسن "(٣) ثـــم يعلّل الزمخشري السبب في ذلك فيرى أنّ الأمثال قد " أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى ، ولوّحت فأغرقت في التصريح ،وكنّت فأبانت عن الإفصاح "(٤) ثم يرى أنّها " للمحافل اذا حوضر بها" ، وللأفاضل متى أوردوها أبّهة ،وللنثر أنّـــى سلكت أضاءه طلاوة ، وللشعر كيف انساقت في تضاعيفه متانـــة " (٥) .

---

(١) البيان والتبيين ،ج ١ ، ص ٢٧١ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٦ .
(٣) المستقصى في أمثال العرب ،اعتنى بتصحيحه ،محمد عبد الرحمن خان ،مطبعـــة مجلة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ،الهند ، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م .
(٤) السابق ج ١ المقدمـــة ص ب .
(٥) نفسه ج ١ المقدمـــة ص ب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كشف عن الناحية البيانيّة التي يقوم بها المثل ، خاصّة في تفسيره الكشّاف الذي يرى فيه أنّ : " في ضرب الأمثال ممّا يكشف المعاني ، ويوضّحها، لأنّه بمنزلة التصوير والتشكيل لها" (١) . ثم إنّ مَنْ " يضرب الأمثال مُشبّه حالا بحال ، وقصّة بقصّة "(٢) .

ولذلك يُكثر الزمخشري من الأمثال في أساسه ؛ لأنّ الأمثال تزخر بهذه المعاني كلّها ، لِما فيها من قدرة على التصوير ، والتأثير ، ولو أنّنا نظرنا في بعض أمثال الأساس لوقعنا على كثير من الشواهد التي تثبت ذلك ، ومنها المثل : " أذلّ من بيضة البلد "(٣)

إنّ هذا المثل يضعنا أمام صورتين اثنتين : الأولى صورة النعامة تترك بيضتها في فلاة موحشة ، والثانية صورة إنسان ينبذه قومه وأحبّاؤه ، ولا يجد له من دونهم ناصرا أو معينا ، بل يظلّ وحده في خلوة لا مؤنس له فيها وهو - على ضعفه - لا يقوى على دفع الأذى عن نفسه ، فلنا أن نتصوّر أحاسيس هذا الإنسان في هذا الموقف ، الذي أرغم عليه ، فهو يترقّب ما قد يقع له في كل حين ولقد كانت لفظة " أذلّ " هي أوقع من أي لفظة أخرى ، وإنّها لتصوّر لنا المعنى على أتمّه ، ثم إنّها تبعث في أنفسنا نفورا ، واستياء ممّا نراه في هذه الصورة .

فذلك ما يوحي به المثل - على وجازته - وهو ما تمتاز بها سائر الأمثال المضروبة ومثله في هذا قولهم للمكثار المخلّط في كلامه هو " حاطب ليل " (٤) فتلك صورة رجل قام يجمع الحطب ليلا ، فهو يتخبّط فيه تخبّطا ، ولا يكاد يميز الحطب من سواه ، فكلّما وقع على جسم ، أو لامسه ، ظنّه حطبا ، فيجمع ويجمع من هذا وذاك ، ثم يرجع ، فإذا هو عند التدقيق والتمحيص ، لم يجمع من الحطب إلاّ النزر القليل ، وإنّها لصورة دالّة على هذا الذي لا يكفّ عن الكلام ، ويخلط فيه بين النافع والضار . ولو أنّنا وقفنا على ظلال العبارة التي تمثّل هذه الصورة - عبارة حاطب ليل - لانبعثت في أذهاننا صور أخرى ، لا يفسّرها معنى العبارة مجرّدا عن ملابساتها ، إذ أنّ هذه العبارة توقفنا على أشياء نحسّها ، وتثيرنا ، ذلك أنّ الخروج في ليل شديد الظلمة ، بقصد البحث عن شيء ما ، أو جمعه ، كحاطب ليل ، تدع للإنسان فرصة لمراجعة الذاكرة ، وتوهم

(١) الكشّاف ، ج ٣ ص ٢٠٤ .
(٢) السابق ج ٢ ص ٣٣٧ .
(٣) مادّة " ب ى ض " .
(٤) مادّة " ح ط ب " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأمور لم تكن لتخطر له ، لولا أنّه وجد نفسه وحيدا في هذا الليل الساكن الهـــادئ الذي توحي به ألفاظ المثـــل .

وهكذا تتلوّن العواطف والأفكار حسب تلوّن ألفاظ المثل ، وانتساقها لتعبّر مـــن فكرة أو معنى يزيد التصاقه في الذهن إن جاء على نحو هذه الصور ولكن الصـــورة في مثل آخر - تتغيّر ، وتتضاءل أكثر اشراقا ، وأقرب إلى النّفس حين تتسالم في أسماعنا كلمات المثل : " تمام الوبيح الصيف " (١) ، إذ نحسّ فيه بردها ، وانتعاشة يشعـــران بمضمونه ، وإن كانا لا يصرّحان به ، ولعلّ لفظة الوبيح - وحدها - تبعث فينا إحساســـا دافئا ، وتثير فينا عواطف بهيجة تنسجم مع مدلول هذه اللفظـــة .

المثـــل والتمثيـــل

إنّ مصطلحي " المثل " و" التمثيل " يوحيان في حقيقتهما إلى أصل واحـــد ، ولكنهما ليسا واحدا ، وإن صحّ أن يُطلق على المثل تمثيل ، أو على التمثيل مثل . فهمـــا يفترقان من عدّة وجوه ، ذلك أنّ التمثيل لا يشترط فيه الشهرة ، والوجازة ، والمـــورد والمضرب ، ولكنّها تشترط في المثل وحده ، وكذلك فإنّ المثل ليس في حاجة إلى أداة التشبيه تحقق المشابهة بينه وبين ما شبّه به ، بل إنّه يؤتى به كما ورد أصلا ثم إنّ " التشبيـــه المجمع عليه في المثل تشبيه مضمر في النفس ، وليس مصرّحا به ، فهو استعارة ، وإنّمـــا أطلق عليه تشبيها لأنّ الاستعارة تعتمد التشبيه وتبنى عليه ، أمّا التمثيل فالأصـــل فيه التنصّ على أداة التشبيه ، لأنه تشبيه حقيقي ، فإذا لم تذكر الأداة وجب تقديرهـــا ويكون حينئذ تشبيها مؤكّدا لما بين الطرفيـــن " (٢) .

---

(١) ســـاقطة " من ن ف " .

(٢) انظر (الحكمة والمثل نظرات في أصولها وخصائصها البلاغية) د . بهد العظيم المطعني مقال في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، العدد الثاني ص ١٦٥ ، المملكة العربية السعودية ، مكة المكرمة سنة ١٤٠٤ (١٩٨٤ - ١٤٠٥ (١٩٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا وقد عرضت للمثل بمفهومه السابق ، وأمّا التمثيل فإنّ له شواهد كثيرة في الأساس ، تؤيّد هذا الفرق الحاصل بين المصطلحين وإن اتّفقا في المفهوم العامّ وهو تصوير المعاني تصويرا يجعل من الصورة الواحدة صورتين في ذات اللحظة .

وقد ورد مصطلح " التمثيل " مرّتين في الأساس : كانت الأولى في مادة " ظ ر ف " : " رأيت فلانا بظرفه : بعينه ، وهو تمثيل من قولك : أخذت المتاع بظرفه " وكانت الثانية في مادّة " ظ ل ع " : " ومن المجاز : ارق على ظلعك : أي ارفق بنفسك ، وظلعت الأرض بأهلها ، ضاقت بهم من كثرتهم وهذا تمثيل معناه لا تحملهم لكثرتهم ، فهي كالدابة تظلع بحملها لثقله " .

إنّ هذين المثلين يُعدّان من الأمثال الواردة على حدّ الاستعارة ، ولكن ليس الاستعارة التمثيلية ؛ لأنهما يفتقران إلى عنصر الشهرة ، وهو العنصر الذي يشترط في المثل حتى يكون استعارة تمثيلية ، وذلك بالإضافة إلى الشروط الأخرى التي سبق ذكرها .

أمّا التمثيل المتخذ من عدّة أمور ، فهو الذي أعنيه ، حين أذهب إلى أنّ له شواهد جمّة ، تثبت له الأهمية التي سعى الزمخشري إلى الإشارة إليها في أساسه ، ولعلّ من أدلّ الشواهد على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام في " ر ك ب " : " إنّما تهلكون إذا صرتم تشون الرّكبات ، كأنكم بعناقيب حجل لا تعرفون معروفا ، ولا تنكرون منكرا " (١) . فقد قصر هلاكهم على سعيهم في الحياة على غير هدى ، ودون رجوع إلى فكر ، فمثلهم في ذلك مثل هذا الطائر السريع الذي لا تتيح له سرعته التوقف والنظر فيما حوله فهم - في حالهم هذه - قد تخلّوا عن وظيفتهم في الحياة ، وانحرفوا عن شريعتهم التي تأمرهم بالخير وتحثّهم عليه ، وتنهاهم عن الشرّ ، وتسفّه إليهم

---

(١) انظر الحديث في الفائق ج ١ ص ٨١ . الركبة : المرة من الركوب ، وجمعها ركبات . العناقيب جمع عنقوب ، وهو ذكر الحجل ، والمعنى تشون راكبين رؤوسكم : أي هالكين سادرين تسترسلون فيما لا ينبغي من غير رجوع إلى الفكر ، ولا صدور عن روية كأنكم في تسرّعكم إليه وتطايركم نحوه بعناقيب ، وهي موصوفة بسرعة الطيران .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمّ عليهم أن يقوموا بوظيفتهم ، في التأثير ، والعمل الجادّ ، الذي يأخذ بيد الانسان ، ويهديه إلى السبيل الحق ، ولكنّهم ما داموا على حالتهم هذه فإنّ ذلك لن يتحقّق ، ولن يكون هناك حسّ إنساني يؤثّر فيهم ، وذلك هو هلاكهم وهم أحياء يدبّون على الأرض .

يمثل هذه الرّوعة تقوم جلّ شواهد التمثيل ، التي تتحقّق من خلالها معان لا يقوم بها التعبير المباشر ، ومن بديع الصور التمثيلية الحديث : " إنّ قلب المؤمن أشدّ اضطرابا من الذنب يصيبه من العصفور حين يخفق به " (١) .

إنّ هذا التمثيل يعطينا صورة متميّزة لشخصية المؤمن وحقيقته النفسيّة ، ولعلّ اختيار العصفور - ههنا - ليكون هو الصورة التي تمثّل حال المؤمن ، اختيار رائع يجسّد المعاني الرقيقة تجسيدا فنّيا جميلا ؛ لأنّ العصفور - في ضعفه وحبّ الناس إليه - يشعرنا ذلك بألفة وتقرّب ثمّ بتلك العاطفة المتأجّجة التي تثور وتهتزّ عندما يستفزّها حدث ينال من براءتها ، كما يفعل الصائد حين يلقي شبكته على هذا العصفور ، فلا يستقرّ بعدها على حال ، يحاول جاهدا أن يتفلّت من قبضة الشبكة التي أحكمها الصيّاد ، وكذلك المؤمن حين يرتكب ذنبا فإنّه لا يقرّ على حال ، ولا يهتدي إلى سبيل ما دام الذنب عالقا به ، فيحاول أن يكفّر عنه ، ويعمل على محوه بالتوبة ، وما دلّت عليه شريعته ، من سبل الخير ، والهداية ، فلا يتمّ له ذلك إلاّ بالبذل والجهد الضنين ، ولكنّه إن حقّق ما يصبو إليه وما ينجيه فإنّه يجد راحته ، ولا تعاوده حالة الشقاء هذه إلاّ اذا عاد إلى ذنبه . فالمؤمن - كما يصوّره المثل - ليس ضعيفا دائما ، إنّما يكون ضعيفا إذا ارتكب ذنبا يغضب خالقه ، ولكنّه - إذا لم يعص خالقه - فإنّه قوي بقوّة عمله وإيمانه فلذلك كان العصفور في حالته السابقة هو مثال المؤمن في حالته حين يرتكب ذنبا .

هذا ولا يقف الزمخشري في شواهده عند الحديث وحسب ، بل إنّ ذلك ليكثر في الشعر ، حتى إنّه ليصعب اختيار بعضها للتمثيل بها على سعة

---

(١) مادّة " غ ر ف " . وانظر : النهاية في غريب الحديث ج ٣ ص ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك ، لأنّها شواهد مختارة عن ذوق متميّز ، ولعلّ في إشارة بعضها ما يدلّ على ذلك .

يقول النابغة الذبياني مصوّرا حالة القلق التي يعيشها :-

فبتّ كأنّي ساورتني ضئيلة من الرّقش في أنيابها السمّ ناقع(١)

فهو يمثّل لنا - في هذا البيت - حاله وقلقه واضطرابه ، بحيّة دقيقة تواثبه لتنقضّ عليه وتصرعه ، وهي حيّة قد أسنّت أي أنّ سمّها يكون أشدّ تأثيرا وفتكا . ولنا أن نتصوّر النابغة يعيش هذه الساعات ، وإنّها لساعات مخيفة ، مرعبة ، تسير به - في بطء شديد - إلى حتفه ، ولكنّ موته المنتظر لا يكون سهلا ، ولا يتحقّق له بيسر ، بل يسبقه صراع عنيف ، تطول فيه الساعات ، وتتقاصر فيه الأعمار ، وما أصعب هذا على الانسان !

ويكاد يكون هذا التمثيل قريبا من قول الطرمّاح :

إذا ذُكرت سلمى له فكأنّما تغلغل طفل في الفؤاد وجيع(٢)

إنّ هذا البيت بما فيه من تمثيل قوي ، يضعنا أمام مشهد حي - كسابقه - فإذا بهذا العاشق يحسّ - حين يحرّبه اسم محبوبته سلمى - بأنّ فؤاده يغلي شوقا إليها ، بل إنّ الجمر ليسقط في فؤاده ، وتشتعل النيران في جوانحه وتغلي في عروقه ، وهكذا تتكرّر حالة الغليان هذه كلّما عاوده الاسم .

ومن الصور التي تقتنا على خصائص التمثيل أيضا ، قول الشاعر :

وإنّي وإيّاكم وشوقا إليكمُ كقابض ماء لم تسقه أنامله(٣)

فإنّنا نرى - ههنا - صورتين تمثّلان حالا واحدة وهي حالة من يشعر بقرب الشيء ، ويحسّ به ، ثم يعجز عن الوصول إليه ، فذلك العاشق الولهان الذي يشتاق أهله أو أحبّاءه ،

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ، شرح وتعليق : محمد الطاهر ابن عاشور ، نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٦ .

(٢) ديوان الطرمّاح ، تحقيق ، الدكتور عزّة حسن ، دمشق ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

(٣) " وشوق " ، والبيت في اللسان أيضا مسادة وشوق .

إنّما هو في تحسّسه لأخبارهم وتمثّله لأشكالهم في قلبه ، وأحاسيسه ، كهذا القابض على الماء ، وهو في ظمأ شديد إليه ، لكنّ الماء يتسرّب من بين أصابعه ، ولا يستطيع أن يحمله بيديه ، لينقله إلى فيه ، حتى يشرب منه ، وفي ذلك ما فيه من ألم ومعاناة تحرقان جسده ، وتعملان عملهما في ابتذال روحه وطحنها طحنا .

وذلك هو أثر التمثيل في النفس ، وفي التصاق المعاني بالذاكرة ولقد تنبّه إلى ذلك الزمخشري ، فأكثر من شواهده ، وبيّن الفرق من ذلك في كلّ فنّ ، حين قال : "والضرب الضرب الأمثال ، واستفصار العلماء المثل ، والنظائر ، شأن ليس بالهيّن في إبراز خبيّات المعاني ورفي الأستار عن الحقائق ، حتى ترى المتخيّل في صورة المحقّق والمتوهّم في معرض المتيقّن ، والغائب كأنّه مشاهد ، وفيه تبكيت للمتعسّم الألدّ وقمع لسورة الجامح الأبيّ "(١) .

---

(١) الكشّاف ج ١ ص ٣٧ - ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستعـــــارة

الاستعارة هي من أهمّ المسائل البيانيّة ، التي تُعنى بها الزمخشري في أساسه، يدلّ على ذلك ، الشواهد الكثيرة ، التي يحفل بها الأساس ، وما صرّح به الزمخشري نفسه في بعض المواد ، وقد اختلف تعريف الزمخشري هذا بحسب ورود الاستعارة في المادة نفسها ، غير أنّه - في الأغلب - ينبّه عليها بقوله : " ومن المستعار " كأن يقول - مثلا - في مادّة " ع ب ب " : " ومن المستعار قولهم لِحَنٍ مرّ في كلامه فأكثر : قد تمّ عبابه". وفي مادّة " ع ب ط " : " ومن المستعار : زعفران عبيط : طرّ بيّن العبيطة . وسيف عبيط". وفي مادّة " ع ر ر " : " ومن المستعار : فلان سمّ سيّم : أي مسوّد ، واعتقد الأكار بالنبات وتمسّست " . فتلك هي الصيغة الدالّة على الاستعارة - وهي الشائعة في الأساس - ولكنّها لا تتقيّد في مفهومها عند معنى الاستعارة فحسب ، بل إنّها قد تشمل معاني المجاز اللغوي أيضا ، فهي قد تطلق على الكناية ، كما في مادّة " ع ن ى " : " ويقال للرامي: إنّه لصحيح العصا ، ولبّين العصا ، وإنّه لشديد العصا ، وصلب العصا " وفي مادّة " ع ط ن": "ومن المستعار : فلان واسع العطن إذا كان رحب الذراع " . وقد تطلق على التشبيه على سبيل الاستعارة كما في مادّة " ع ن ق " : " وجاء فلان بالعناق ويأذني عنـــاق: إذا جاء بالخيبة والشرّ ، والأصل فيه : دابّة كالفهد سوداء الرأس أبيض سائرها تسنّ عناق الأرض ، وهي سيّاه كوثر وهي موصوفة بالشدّة " . وفي مادّة " ع و ر " : " وما أدري أي الحمار عاره : أي أهلكه ، وأصله : عار عينه إذا عورها " .

ونستطيع أن نتبيّن من هذه الأمثلة ، أنّ المستعار هنا ، بمعنى المجاز لغة ، وذلك ما يؤيّده قول عبد القاهر الجرجاني : "إعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي ، معروف ، تدلّ الشواهد على أنّه اختصّ به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر ، أو غير الشاعر ، في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلا غير لازم ، فيكون هناك كالعارية " . وقد بيّن الزمخشري ذلك في بعض المواد فهو - مثلا - يقول في مادّة " ح د ج " : " حدجه بالسهم : رماه به : أصله الرمي بالحدج ، ثم استعير للرمي بغيره،

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما استعاروا الإحلاب ، وهو الإعانة على الحلب ، للإعانة على غيره ، واتسعوا فقالوا: حد جه ببعيره " ويقول في مادّة " رى ع ": " ذهب ريعان الشباب: وهو مقتبله وأفضله استعير من ريع الطعام " . وفي مادّة " س ف ل ": " وهو من السفالة : استعير من سفالة الدابة " . فالاستعارة أو الإعارة في هذه الموادّ بمعنى المجاز اللغوي ، وليست بمعنى الاستعارة بمفهومها المصطلح عليه عند البلاغيين .

ويرى عبد القاهر الجرجاني ، أنّ الفرق بين المجاز اللغوي عامّة ، والاستعارة هو " أنّ المجاز أعمّ ، من حيث إنّ كلّ استعارة مجاز ، وليس كلّ مجاز استعارة " (١) .

وأمّا الاستعارة بمفهومها المتعارف عليه عند البلاغيين فهي : " أن تذكر أحد طرفي التشبيه ، وتريد به الطرف الآخر ، مدّعيا دخول المشبّه في جنس المشبّه به دالاّ على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يخصّ المشبّه به ، كما تقول : في الحمّام أسد ، وأنت تريد به الشجاع . مدّعيا أنّه من جنس الأسود فتثبت للشجاع ما يخصّ المشبّه به ، وهو اسم جنسه ، مع سدّ طريق التشبيه بإفراده في الذكر ، أو كما تقول : إنّ المنيّة أنشبت أظفارها ، وأنت تريد المنيّة : السبع بادّعاء السبعيّة لها ، وإنكار أن تكون شيئا غير سبع ، فتثبت لها ما يخصّ المشبّه به ، وهو الأظفار ، وسمّي هذا النوع من المجاز استعارة لكان التناسب بينه ، وبين معنى الاستعارة " (٢) .

وقد ظهر هذا المفهوم واضحا في الأمثلة من خلال تعليقات الزمخشري على بعض الشواهد ، فمنها ما بيّنه في مادّة " رفرف " إذ يقول بعد أن يورد البيت :

" وسها يرف كأنّه برد نزل السحابة ماؤه يبرق

استعار له السها وهو البلّور ، ثم شبّهه بالبرد ، وفيه تحقيق أنّه سها على الحقيقة ، وجعل ما في السحابة نزلا لها " . وكذلك في مادّة " ر ن ق " فقد قال بعد البيت :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٦٢ .
(٢) المفتاح ص ٣٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ورنّقت المنيّة فهي ظـــــلّ على الأبطال دانية الجنـــاح

وفيه بيان جليّ ،أنّ ترنيق المنيّة ،مستعار من ترنيق الطائر ،حيث جعل المنيّة كبعض الطير المرنّقة ،بأنّ وصفها بصفته من التظليل ، ودنو الجناح " . وقال معلّقا علـــى البيـــــت :

" وكانت جديرا أن يقسّم لحمهـــا اذا صلّ بين الملجمين شكيمهـا

وهذا من إيماضهم في الاستعارة إلى أصلها حيث جعل المزاولين للقدر ملجميـــن ووصف الشكيم بالصليل ،كما يجعل شكيم الدابة عند إلجامهـــا " .

وقد أشار الزمخشري في بعض المواد ، إلى المبالغة الحاصلة في الاستعـــارة مثال ذلك ما ذكره في مادّة " ض ب ب " فقد قال بعد أن أورد البيت :

" أطافت بفحّال كأنّ ضبابـــة يباون الموالي يوم عيد تنسّكت

أراد بالضباب ضبابا ،استعاره للضباب ،ثم شبّهه ببياون الموالي ، وهذا من تناســي المستعير ، وتجاهله ، كأنّ الضباب حقيقة " وقال في مادّة " ع ن ب " موضّحا الاستعارة في بيت الفـــرزدق :-

"إذا العصب أمسى في السماء كأنّـه هدا أرجوان يابتغلّ نيرهـــا

جعل السحاب الأحمر هو العصب بعينه ،وذلك إيغالا في الاستعارة ،حتى شبّهـــه بهدا الأرجوان ،فيرتفق بين أن يقول : كأنّ السحاب الأحمر هدا أرجوان ،وبـــين ما قاله . وهذا باب من علم البيان حسن بليـــغ " .

وقد ذهب الزمخشري في كشّافه إلى أنّ المفلقين البصرة ،من الكتّاب ،والشعراء هم الذين يتناسون التشبيه الحاصل بين طرفي الاستعارة " ويضربون عن ترشّحه صفحا "(١)

وقد نبّه الزمخشري في أساسه على نوع من المجاز ،عرف فيما بعد بالاستعـــارة المرشّحة ،وذلك هو المجاز المرشّح الذي يذكره في مادّة " ع و م " إذ يقول فيها : " ومن

---

(١) الكشّـــاف ج ١ ص ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المستعار: الإبل تعوم في الماء، وأمّا يعمن في لجّ السّراب، فمن المجاز المرشّح. يعني به المجاز الذي يأتي تبعا لمجاز آخر يؤكّد المعنى المجاز فيه، حتى لا يشكّ في أنّه حقيقة، وقد عرّفه في الكشّاف بعد أن ذكر قوله تعالى ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ (١) ثم قال: "هب أنّ وراء الضلالة بالهدى، وقع مجازا في سعة الاستعمال، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأنّ ثمّ مبايعة على الحقيقة، قلت: هذا من الدقة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وتوجب أن تساق كلمة مساق المجاز، ثم تقفّى بأشكال لها، وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه، ديباجة وأكمرية ورونقا، وهو المجاز المرشّح، وذلك في نحو قول الضرب في البليد: كأنّ أذني قلبه خطلا، فإنّ جعلوه كالحمار، ثم رشّحوا ذلك؛ روما لتحقيق البلادة فادّعوا لقلبه أذنين، وادّعوا لهما الخطل؛ ليمثّلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الحمار، وشاهدة معانيه" (٢).

وهذا المجاز، معروف عند البلاغيّين المتأخرين بالاستعارة المرشحة أو الاستعارة الترشيحية، يأتي في مقابلتها الاستعارة التجريدية، وقد بيّنهما السكّاكي بقوله: "إعلم أنّ الاستعارة في نحو عندي أسد: إذا لم تعقّب بصفات، أو تفريع كلام، لا تكون مجرّدة ولا مرشّحة، وإنّما يلحقها التجريد أو الترشيح إذا عقّبت بذلك، ثم إنّ الضابط هناك أصل واحد، وهو أنّك قد عرفت أنّ الاستعارة لا بدّ لها من مستعار له، ومستعار منه، فمتى عقّبت بصفات ملائمة للمستعار له، أو تفريع كلام ملائم له، سمّيت مجرّدة، ومتى عقّبت بصفات أو تفريع كلام ملائم للمستعار منه سمّيت مرشّحة" (٣).

كما عرّفها الزمخشري في أساسه بأنّها نوع آخر من الاستعارة، وهو الاستعارة المشتقّة، فقد قال في "ع و ر": "ومن المجاز: استعار: أعور الفارس: بدا منه موضع خلل، وكان مستورا: ذو عورة. وقد أعور له الصيد وأعورك: أمكنك، وعورتا الشمس: خافقاها وتعاورته بالضرب، واعتوره والاسم تعتوره حركات الرياح رسم الدار، وتعاورنا العوارض واستعار سهما من كنانته وأرى الدهر يستعيرني شبابي:

(١) البقرة بعض الآية ١٦.
(٢) الكشّاف ج ١ ص ٣٧.
(٣) المفتاح ص ٣٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يأخذه منّي ،وسيف أعيرته المنيّة . قال النابغة :

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه وسيف أعيرته المنيّة قاطع

وقد أشار الزمخشري في أساسه ،إلى أنّه قد يشتقّ من المستعار له أيضا. وذلك حين قال في مادّة "ج ح ش" : "وقد يستعار للمهر والغزال ،ويشتقّ منه للصبي، قال المعترّض الطفري :

قتلنا مخلدا وابني حراق وآخر جحوشا فوق الفطيم"

ويعني بالمشتق - ههنا - الجحش ،ويفهم مما أورده في المدّتين أنّ الاستعارة المشتقّة تكون من المصدر الذي يشتق منه الفعل ، وذلك ؛ لأنّنا نرجع في حكمنا بأنّ اللفظ مستعار إلى المصدر نفسه ،وقد بيّن هذا كلّه عبد القاهر الجرجاني ،فهو يقرر أنّ "الذي يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصوّر فيه أن يتناول ،ذات شيء كما يتصوّر في الاسم ،ولكنّ شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدلّ صيغته عليه" (١) .ويضرب مثلا على ذلك بقوله :"فإذا قلت: ضرب زيد . أثبتّ الضرب لزيد في زمان ماض،وإذا كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل فإنّه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منه :بيان ذلك أن تقول : نطقت الحال بكذا . وأخبرتني أساريرِ وجهه بما في ضميره ،وكلّمتني عيناه بما يحزن قلبه ،فتجد في الحال وصفا هو شبيه بالنطق من الإنسان ،وذلك أنّ الحال تدلّ على الأمر ،ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء ،كما أنّ النطق كذلك وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وجود دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها ، وخواطر أوصاف يحدس بها على ما في القلوب من الإنكار والقبول" (٢) .وينتهي عبد القاهر الجرجاني في قوله هذا إلى" أنّ وصف الفعل بأنّه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذي اشتقّ منه . فإذا قلنا في قولهم : ناطقت الحال :إنّ نطق مستعار فالحكم بمعنى أنّ النطق مستعار" (٣) .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٤٨ .
(٢) السابق ص ٤٨ .
(٣) نفسه ص ٤٨ - ٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عرض الزمخشري في مادّة " د ل م " إلى التفريق بين الاستعارة والتشبيه وذلك يظهر في قوله بعد أن يورد البيتين :-

" شربت بماء الدحرضين فأسبحت زورا تنفر من حياض الديلم (١)"

والبيت :-

" ولقد عصمت بغارة في ليلة سوداء حالكة القرون الأدلم (٢)"

ثم يقول معقبا عليهما :-

" فهذا تشبيه ، وذاك استعارة " ، ويتضح أن الزمخشري يريد بهذا ، أن يبين وجوب الشبه في جنس العلاقة به في الاستعارة دون التصريح بالتشبيه ، وقد وضح ذلك عبد القاهر الجرجاني الذي يرى " أن التشبيه لا يحتمل أن يكون المشبه هو نفسه المشبه به ، كأن تقول : " زيد أسد " ولكن في الاستعارة قد يحتمل أن يكون الكلام على حقيقته ، فتقول : " لقيت له ظبية " وأنت تعني ظبية بعينها ، أو تعني امرأة ، فكلا الأمرين جائز ، ثم إنّه لا تدخل المرأة " المرأة أو ظبية " في ذات اللحاظة ، ولكن إنّما هذه ، أو هذه ، أمّا إن قلت : زيد أسد ، فلا يحتمل أن يكون زيد هو الأسد في ذات اللحاظة ، ولكن له بعض صفات الأسد " (٣) .

والذي يوضح هذا الاختلاف بين الاستعارة ، والتشبيه ، هي الأداة نفسها ، فهي تظهر في التشبيه ، ولا تظهر في الاستعارة ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإنّ الاستعارة يمكن أن تدلّ على الحقيقة ، دون تأثير ، بعض مقاديرها في ذات اللحاظة ، ولكن التشبيه لا يمكن أن يكون كذلك ، لأنّه إذا وجدت أداة التشبيه في الكلام ، فلا بدّ أن يحدث انقسام في طرفي التشبيه فيكون لدينا : مشبّه ، ومشبّه به ، وهما مختلفان ، ولا يمكن أن يكونا واحدا .

---

(١) مادّة " د ل م " .
(٢) مادّة " د ل م " .
(٣) أسرار البلاغة ص ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القيمة البيانيّة للاستعارة

تُعدّ الاستعارة ، فنّا من أسمى الفنون الأدبيّة ، التي تتوجّه إليها أنظار الأدباء المفلقين ، لِما لها من قدرة على التصوير والإيحاء ، والتعبير عن الانفعالات والأحاسيس الوجدانيّة لدى الإنسان ، ولذلك نجد شواهد ما كثيرة في الأساس ، ونجد اهتماما كبيرا تجسّد ، تعابير السلفاء ، والدارسين ، بل إنّ عبد القاهر الجرجاني يجعلها أصلا من أصول البلاغة العربيّة ، وقطبا من الأقطاب التي تدور عليها المعاني في تصرّفاتها (١) . وكذلك نظر إليها الزمخشري ، فأكثر من الاحتفال بها ، وصرّح في غير موضع بأهمّيتها وأثرها في فنّ القول العربي ، ولعلّ من أدلّ الأدلة على ذلك ما ذكره في مادّة " ض ر ب " بما أشار إليه في مادّة " ض ر ر " وذلك بعد أن أورد بيت ذي الرّمّة :

يتنزو أظمأ تباشرن قلبه ... وخان الصفا من باطن البين قادح(٢)

ثمّ قال معلّقا على ما جاء فيه : " وهو من فصيح الكلام ، وعاليه ، وما نقمه وأبلاه إلاّ الاستعارة " .

وقد نظر البلاغيّون إلى الاستعارة على أنّها قائمة بطرفيها على علاقة المشابهة دائما (٣) . بيد أنّ عبد القاهر الجرجاني لم يكن ينظر إليها هذه النظرة المحدودة ، بل كان يرى أن يكون " كل شيء يجيء مشبّها بكاف أو بإضافة " مشبّه " إليه يجوز أن تسلّط عليه الاستعارة ، وتنفّذ حكمها فيه ، حتى تنقله عن صاحبه وتدّعيه للمشبّه على حدّ قوله : " أبدت نورا تريد علما و سللت سيفا صارما " تريد رأيا نافذا " (٤) ثم يقصر عبد القاهر علاقة المشابهة بين طرفي الاستعارة على أنّه " إذا كان الشبه بين الشيئين ممّا يغرب مأخذه ، ويسهل متناوله ، ويكون في الحال دالّ عليه ، وفي العرف

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦ .
(٢) مادّة " ض ر ر " وانظر البيت في ديوان ذي الرمّة ج ٢ ص ٨٦٣ .
(٣) انظر مفتاح العلوم ص ٣١٦ ، والإيضاح ص ٤٠٧ .
(٤) أسرار البلاغة ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شاهد له ، حتى يمكن المخاطب ، إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ، ويعلم ما أريد " (١) ، كما يؤكد عبد القاهر أن يغتصب التشبيه في الاستعارة اغتصابا ؛ " لأن وجه الشبه إذا كان غامضا لم يجز أن يقتصر الاسم ، ويغتصب عليه موضع وينقله إلى غير ما هو أهله من غير أن يكون معه شاهد يبين من الشبه " (٢) وقد ذكر في موضع آخر " أن في الاستعارة ما لا يتصور تقدير التشبيه فيه ألبتة ، وذلك مثل قول البحتري :

وغدا الربيع قد كفلت وقسره إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)"

فهو يعلّق على هذا البيت : " لا خلاف في أن " اليد " استعارة ، ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ " اليد " قد نقل عن " شيء " إلى " شيء " وذلك أنه لم يعهد على أنه شبّه شيئا باليد ، فيمكنك أن تزعم أنه نقل " اليد " إليه " (٤) وكذلك القول في هذا النوع من الاستعارة (٥) .

من هنا كانت نظرات بعض المحدثين - في ظني - أحق بالأخذ والاعتبار في فهمنا للاستعارة ، من نظرة القدامى إليها . ولعلّ الدكتور مصطفى ناصف من أبرز المهتمين ، في الكشف عن حقيقة الاستعارة ، والعلاقة القائمة بين المستعار ، والمستعار له ، فهو يذهب فيها إلى أنّ " التوتر يولد التفاعل بين المستعار ، والمستعار له ، فليست العلاقة قائمة ، على أنّ تشرح الصورة الفكرة ، ولكن يطلب منّا أن نأخذ في اعتبار المعاني التي تتولّد حينما يواجه المستعار ، والمستعار له أحدهما الآخر (٦) " ، لذلك فإنّ عناصر الاستعارة - في رأيه - " لا معنى لها من حيث ارتباطها بذلك الضوء الذي يخلقه بوساطة ما بينهما من تفاعل " (٧) ، ثم يأخذ الدكتور ناصف بتوضيح فكرته ، فيقول :

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٢٤ .
(٢) السابق ، ص ٢٢٤ .
(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ٤٣٦ وانظر البيت في شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ) ، ضبطه وصححه عبد السلام الحوفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
(٤) دلائل الإعجاز ص ٤٣٦ .
(٥) نفسه ص ٤٣٦ وانظر ما كتبه الدكتور شفيع السيد في التصوير البياني ص ١١٠ .
(٦) الصورة الأدبية ، د . مصطفى ناصف ص ١٤٢ ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ ط ٣ .
(٧) السابق ص ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" إنّ الاستعارة ،تقدّم إلينا حديدا لا وجود كامل لها في خارج التعبير الـــــذى أنتجته هي نفسها ،ومن ثمّ كان تفسير المجاز أمرا محفوفا بالصعاب ،ولا يمكن أن يأخذ إلاّ من جهة واحدة " (١) .ثم يمثّل الدكتور لذلك " بالفرق بين " أبواب الحياة الحديدية" و " أبواب المتنزّه الحديدية " فالأبواب الحديدية جزء من المتنزّه والعلاقة بينهما ثابتة لا تتغيّر ، على حين أنّ العبارة المجازيّة ،إذا أخذت مأخذ التفاعل بين جميع أجزائها تبيّن لنا فكرة الحياة في مشهد الأبواب الحديدية والأبواب الحديدية في مشهـــــد الحيـــاة " (٢) ثمّ يقول : " وحسب اختلاف وجهتي النظر المكتنين إلى العبارة تتأثّـــر الحياة بفكرة الأبواب الحديدية ،وتتأثّر الأبواب الحديدية بفكرة الحياة تارة أخـــرى " (٣) ويخلص الدكتور من ذلك إلى أنّنا " إذا نظرنا إلى الطرفين كل في مقام الآخر ، غـــدا الشبه الحقيقي معنى أتجه التفاعل بين الحدّين اللذين يشكّلان معا الشبّه بـــــه ، فالمشبّه نوع من الحياة يمكن أن نتلبّس به في مواجهة الأبواب الحديدية ،ونوع مـــــن الأبواب الحديدية خليق بالتأنّس في مواجهة الحياة " (٤) ثمّ ينتهي من هذا التحليل العميق إلى أنّ الاستعارة " ليست في أي مجال من مجالاتها عنصرا إضافيا ،بل هـــي المخرج الوحيد ،لشيء لا يمكن بغيرها ،فليست الاستعارة منظرا خارجيا على التفكير بذلك لأنّنا نمضي في التفكير من غير المجهول ،إلى المجهول ،بأن نمدّ من حـــدود اصطلاح أليف الى حقيقة أو موقف غير مألوف " (٥) .ويرى أيضا أنّه " قد يخيّل إلينـــا أنّ الاستعارة لا تكون إلاّ حين تنفرد التجربة ،وتتميّز تميّزا غريبا ،لكنّ عالمنا جميعـــا أخذ شيئا تتميّز ،ونعلن أنّ وحدة ،وإذا حاول الشاعر أن يكون دقيقا ،اضطرّ إلـــى أن ينهج سبيل الاستعارة ،ونحن نراها للشاعر ما يهبه لخياله من خصوصيّة ،وامتيـــاز حقيقيين ،ومن ثمّ كانت السنّد الأكبر للمغامرات الخصبة الفـــذّة " (٦) .

---

(١) نفســـــــــه ص ١٤٢ .
(٢) نفســـــــــه ص ١٤٣ .
(٣) نفســـــــــه ص ١٤٢ .
(٤) نفســـــــــه ص ١٤٢ .
(٥) نفســـــــــه ص ١٤٧ .
(٦) نفســـــــــه ص ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ هذه الرؤية الجديدة للاستعارة ،تحتاج إلى تمعّن ،وإدراك لطبيعة الفنّ الاستعاري القائم في حقيقته ،على الامتزاج العاطفي المؤثّر والتفاعل الظاهر، فليست الاستعارة فنّا جامدا ، كما تبدو في تحليلات القدماء ،ولذلك فقد ذهب بعض الدارسين المحدثين إلى أنّ " قيمة الاستعارة لم تعد محصورة في كونها مجرّد محسّن بلاغي ،كما كانت نظرة النقّاد القدامى إليها ،ولكنّها في ضوء الدراسة الحديثة بدت عنصرا أصيلا في حياة الأدب ،بل إنّها جوهره وركيزته الأولى في التعبير عن الانفعال، حيث إنها لا تكون لغة الشعر عميقة حيّة ،ومن هنا فالاستعارة في الأدب لغة الانفعال، بل هي الدافع الأساسي لذلك " (١) .

وقد تتّضح هذه النظرة ،حين تترسّم الاستعارة في بعض شواهد الأشعار: يقول النابغة الذبياني مخاطبا النعمان بن المنذر ،ومستشفعا :-

لا تقذفنّي برکن لا كفاء لـه ... وإن تأثّفك الأعداء بالرّفـد (٢)

فالشاعر ههنا ، يطلب ببذلة من مطارده ألاّ يقذف به في مكان موحش ،حيث لا ناصر له فيه ،ولا مؤنس،وألاّ يستجيب لأعدائه الحاقدين حول الملك ،ليثيروه ،ويعملوا على اثارة الفتنة بينهما ،ولعلّ لفظة القذف هذه " لا تقذفني " تصوّر لنا الجوّ النفسي الذي يعيشه الشاعر ،ويحسّ فيه بضآلته ، واحتقار الناصر له ؛ لذلك فهو يتوسّل إلى الملك أن لا يتركه سبوذا ، كما تترك الحصاة المقشّرة .

وصورة أخرى ترسمها لنا الاستعارة ،وذلك في قول الخنساء ترثي أخاها صخرا، وتصف حالها بعده :

أرعى النجوم وما كلّفت رعيتهـا ... وتارة أتفقّى فضل أطمـار (٣)

---

(١) فنّ الاستعارة ،أحمد الشايب ص ٣٦٠-٣٦١ ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية ، ؟ .

(٢) مادّة " أ ث ف " وانظر البيت في ديوان النابغة الذبياني ،ص ٨٧ ،ومعناه : أي لا ترمني منك بركن لا مثل له ،وإن تأثّفك الأعداء واحتشوه متوازرين أي متعاونين .

(٣) مادّة " ر ع ى " وانظر ديوان الخنساء ص ٢٦٠ ،شرحه ثعلب ،حققه د . أنور أبو سويلم ،دار عمّار ،١٩٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّها تصوّر الجوّ الذي تعيشه ،وتعانيه ،إذ تترقّب نجوم الليل المضيئة فتتأمّلها بتلهّف شديد ،وهي تحدّث نفسها بظهور النجم الغائب - صخر - الذي سيضيء لها الكون كلّه، فهي تبحث عنه بين هذه النجوم وترقب وجهه المشرق الذي يمسح غبار الليل المظلم عن وجهها . وهكذا هي تفعل كلّ ليلة ،ولا يحد اليأس إلى نفسها سبيلا .

تلك هي الصورة الجميلة ،التي ترسمها الاستعارة ،فتلامس أحاسيسنا وتنال من عواطفنا ،وتثير فينا ،ما لا يثيره أيّ تعبير آخر مباشر ،مفتقر إلى هذه الدّقة في رسم المشاعر والأحاسيس ،ومزجها بروح الفن .

وثمّة صورة ثالثة تشكّلها الاستعارة ،ونحسّ فيها بفيض من المشاعر والأحاسيس، والخوالج الإنسانيّة الصادقة ،وذلك ما نجده في قول الشاعر: يصف لنا لقاءه مع محبوبته :-

إذا ما التقينا سال من عبراتنا ... شآبيب تنأى سيلها بالأصابع(١)

فهو يصوّر لنا لقاءهما الحارّ،تصويرا فنّيا مثيرا ،إذ هما يلتقيان ،فتتدفّق الدموع على خدّيهما ؛ فرحا بهذا اللقاء ،فيحاولان إبعاد الدموع بأطراف أصابعهما أو بهما جميعا ،ولكن هيهات أن تدفع عنهما شيئا من تلك الشآبيب المنهمرة على خدّيهما إنّها صورة تثير عواطف وأشجانا ،وفرحا باللقاء ،فرحا يغرق صاحبه بالدموع. وممّا يجلب الانتباه حقّا أنّ استخدام اللفظ " تنأى " هو استخدام شعري موفّق ؛ إذ يصعب أن نقع على لفظ يقدر إزاءه في هذا البيت ،فإنّ هذا اللفظ يصوّر لنا بخفّته ولطافة جرسه ،الضعف الانساني المتمثّل ،إزاء هذا السيل الجارف من الدمع، وممّا زاد الصورة جمالا وتأثيرا ،أنّ محاولة النأي هذه حاصلة بالأصابع ،وهي - أيضا - لفظة تعبّر عن جسم ضعيف لا يقوى على دفع الأشياء الثقيلة . وقد ورد هذا البيت في لسان العرب(٢) وهو في رواية تختلف بتغيير لفظ " تنأى " إذ هو في اللسان " بنأى" ولكنّ اختيار

---

(١) مادّة " ن أ ى " وورد البيت في اللسان أيضا مادّة " ن أ ى " .
(٢) انظر اللسان مادّة " ن أ ى " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزمخشري للفظ السابق أوقع وأشدّ تأثيرا ،بل إنّ فيه ذوقا فنّيا راقيا ؛ لأنّنا لـــو حاولنا أن نستبدل اللفظ الذي أتى به في الأساس ،بما ورد في اللسان ،لما كان للبيت هذا الجمال ،ولما ظفرنا بهذه الصـــورة .

إنّ الاستعارة تمنح الشاعر ،أو الأديب ،أفقا أوسع ،ونظرة أشمل ،وإنّ الأديب يضفي عليها من روحه ،ودفق أحاسيسه ،ما يحرّك كوامنها ،ويثير حرارتها ، حتـــى تغدو الصورة المتفرّعة عن ذلك كلّه ،صورة أدقّ وأعمق ،وأكثر تأثيرا وأحسن إيقاعا ،ولعلّ في قول جرير الآتي ما يوضّح هذا ،فهو يقول راثيا الخليفة عمر بن عبد العزيز :

فالشمس كاسفة ليست بطالعـــة تبكي عليك نجوم الليل والقمـرا (١)

إنّ الشاعر يحسّ بألم عميق ، وحزن شديد بموت هذا الخليفة العظيم، إنّه يحـــسّ أنّ الكون يشاركه بهذا الإحساس الحزين ،فها هي الشمس تنكسف لموته ،ولا تبـــدو مضيئة ،بل إنّها عابسة منحسرة ،تبكي عليه ،ولن يمنعها شيء عن البكاء ،حتى تـــزول النجوم ،ويفقد القمر ،إنّه إحساس متدفّق لوعة وألما ؛ لذلك يريد الشاعر أن يفرغـــه، فلا يجد إلاّ كونا مثله ،حزينا ،أسفا ،على موت هذا الرجل ،الذي اهتزّت الآفـــاق ، وتغيّرت له نواميس الكـــــون .

---

(١) هكذا رواية البيت في ديوان جرير ج ٢ ،ص ٧٣٦ ،تحقيق د .نعمان محمد أمين طه ،دار المعارف بمصر ،القاهـــرة ؟
وقد ورد في الأساس في مادّة " ب ك ى " وكان على النحو الآتـــي :
الشمس طالعة ليست بكاسفـــة تبكي عليك نجوم الليل والقمـــرا
وأراني أؤثر رواية الديوان ؛ لأنّها في تقديري - أكثر انسجاما مع إحساس الشاعر وطبيعة الشعر نفسه .انظر ما دار حول البيت في كتاب الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي (- ٩١١) ج ٥ ص ٣٠٧ وما بعدها ، تحقيق د . عبد العال سالم مكرم ،مؤسّسة الرسالة ،بيروت ،١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م ط ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكنايـــــــة

تبرز الكناية - في الأساس - بروزا ظاهرا ، تؤكده الشواهد الكثيرة إذ يعدّهـــا الزمخشري أساسا جليلا من أسس البلاغة ، وفنّا مهمّا من فنون البيان العربي ، لذلـــك فهو معنيّ - في أساسه - بذكرها ، والكشف عن مضونها ، وأسرارهـــا .

وقد ورد تعريفها - لغة - في مادّة " ك ن ى " : " كنى عن الشيء كناية وكنـــى ولده ، وكناه بكنية حسنة ، والكنى بالسنى ، وتكنّى أبا عبد الله أو بأبي عبد الله ، وفـــلان حسن العبارة ؛ لكنى الرؤيا ، وهي الأشياء التي يضربها ملك الرؤيا يكنى بها عـــن أعيان الأمـــــور " .

أمّا الكناية في عرف البلاغيين - أن اللفظ الذي أريد به لازم معناه مع جـــواز إرادته معه (١) - فقد ظهرت شواهد كثيرة في الأساس تدلّ على هذا المفهوم منهـــا ما ورد في مادّة " ع ت ب " : " أبدل عتبة بابك : جعلها إبراهيم صلوات الله عليه كناية عن الاستبدال بالمرأة " . وفي مادّة " ع م د " : " فلان رفيع العماد : أي شريف ؛ لرفعة عماد خباء الشريف منهم " وكذلك في مادّة " و ذ ر " : " ومن المجاز : قولهم في الشتم : يا ابن شامة الوذر : يريدون الزانية ، والوذر كناية عن المذاكـــير " .

وقد صرّح الزمخشري في الكشّاف بتعريفها ، إذ يرد أنّ الكناية : "أن تذكـــر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك : طويل النّجاد ، والحمائل : لطول القامة وكثـــير الرّماد للمضيـــــاف " (٢) .

وهذا التعريف مأخوذ من قول عبد القاهر الجرجاني ، فهو يقول في تعريـــف الكناية : " والمراد بالكناية - ههنا - أن يريد المتكلّم إثبات معنى من المعاني فـــلا

---

(١) التلخيص ص ٣٢٧ .
(٢) الكشاف ج ١ ص ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ، وردفه في الوجود فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه "(١) . ومثّل عبد القاهر لذلك بقول العرب : " هو طويل النّجاد : يريدون : طويل القامة ، وكثير رماد القدر يعنون : كثير القرى ، وفي المرأة : نؤوم الضحى والمراد أنّها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا هذا كلّه - كما ترى - معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاصّ به ، ولكنّهم توصّلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون إذا كان "(٢) . ثم يقول عبد القاهر موضّحا ذلك : " أفلا ترى أنّ القامة إذا طالت طال النّجاد ، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر ، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى "(٣) .

وقد كان الزمخشري يُنبّه على الكناية في مواد الأساس بتعابير مختلفة ولكن الشائع في أكثر المواد ، أن ينبّه عليها بقوله : " ومن الكناية " مثال ذلك ما جاء في مادة " ب د ن " : " ومن الكناية : أبدن الرجل : قضى حاجته " وكذلك في مادة " ب ر ز " : " ومن الكناية : برّز لي فلان بخير : إذا أعطاك ، ولأنّ العطاء تلوي البشاشة " وفي مادة " ح م ع " : " ومن الكناية : فلانة قد حمعت الثياب : أي كبرت ، لأنّها تلبس الدرع والخمار والملحفة " وقد ينبّه الزمخشري على الكناية بقوله : " ومن الكناية والمجاز " كما وقع ذلك - مثلا - في مادة " خ ض ع " : " ومن الكناية والمجاز : خضعت الإبل في سيرها : جدّت وهنّ خواضع ، لأنّها إذا جدّت طأمنت أعناقها . قال جرير :-

ولقد ذكرتك والمطيّ خواضع ... وكأنّهنّ قطا فلاة سنهل

وخضعت الشمس والنّجوم : مالت للمغيب ، كما قيل : ضرعت وضحكت ، والنجوم خواضع ، وضوارع ، وضواحك " . وقد يمكن الزمخشري المصطلح فيقول : " ومن المجاز والكناية " ، وقد ذكر ذلك - مثلا - في مادة " ذ ه ب " : " ومن المجاز والكناية : ذهب فلان مذهبا حسنا ، وذهب علىّ كذا : نسيته ، وذهب الرجل في القوم والماء في اللبن : غلّ ، وفلان يذهب إلى قول أبي حنيفة : أي يأخذ به ، وذهبت به الخيلاء ، وخرج إلى المذهب ، وهو

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٦ .
(٢) السابق ص ٦٦ .
(٣) نفسه ص ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتوضأ عند أهل الحجاز وتقول : مثل مذهبكم وقدره ، مثل مذهبكم وقدره" وكذلك ذكره في مادّة " ر ح ض " : " ومن المجاز والكناية : هذه سوأة لا ترحضها عنك ، ورحض المحموم: أخذته رحضاء الحمّى وهي عرقها كأنّها ترحضه ألا ترى إلى قوله : إذ ما فارقتني غسلتني . وتقول : إذا سالت الرحضاء زالت العرواء ، وقد ذهب إلى المرحاض، وهي المخرج ، وفي الحديث" وجدنا مراحيضهم قد استقبل بها القبلة " .

وقد يعبّر عن الكناية بذكر المجاز المنقول منها أيضا ، كما وقع في مادّة " ج ر ن: " ضرب الإسلام بجرانه : أي ثبت واستقرّ ، وهو من المجاز المنقول من قولهم :ضرب البعير بجرانه ، وألقى جرانه : إذا برك " فانّ التعبير الثاني استخدمت ألفاظه على حقيقتها ، ولكنّ التركيب كلّه كناية عن بروك البعير . وأما في التعبير الأوّل ، فانّ الألفاظ مستخدمة مجازا ، ولكنّ التركيب أيضا كناية عن ثبات الإسلام واستقراره ؛ لذلك نقل هذا المعنى من معنى التركيب الثاني فهو من المجاز المنقول من قولهم :" ضرب البعير بجرانه " .

وكذلك ينبّه الزمخشري على الكناية من خلال توضيحها في بعض الشواهد ، كما جاء في مادّة " ج ع د " : " وأمّا قولهم : جعد جواد فمن الكناية عن كونه عربيّا سخيّا ؛ لأنّ العرب موصوفون بالجعودة " وفي مادّة " ح ش ر " : " تعدد فلان في الحشر ، وهو البستان ، فكني به عن المتوضّأ" وفي مادّة " س ب د " :"سبّد رأسه : استقصى طمّه أو جزّه ، ومنه السبدة : العمامة : كناية عنها " . وفي مادّة " م ر ح " : " له مراح منفسح: وهي كناية عن كثرة الإبل " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكناية بين الحقيقة والمجاز

رأينا كيف يقرن الزمخشري - في بعض المواد - المجاز بالكناية، أو العكس فيقول : " ومن الكناية والمجاز " أو يقول : " ومن المجاز والكناية " وقد يقول : " ومن المجاز المنقول من الكناية " . ويبدو لي - أنّ الزمخشري يريد من هذا التنبيه أن يميّز بين الكناية الواقعة حقيقةً ومجازا، والكناية الواقعة مجازا ذلك أنّ الكناية - أحيانا - تحتمل المعنيين معا ؛ لذلك فهي إمّا أن تكون حقيقة ومجازا، وإمّا أن تكون مجازا ، لا يمكن تصوّر الحقيقة فيها أو إرادتها .

وأمّا احتمال الكناية للحقيقة، والمجاز فقد كان هذا هو أهمّ الفروق التي يكاد يجمع عليها البلاغيّون، ويفصلون فيها بين الكناية والمجاز، وقد بيّن ذلك السكّاكي حين قال : " والفرق بين المجاز والكناية يظهر من وجهين : أحدهما أنّ الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها، فلا يمتنع في قولك : فلان طويل النجاد أن تريد طول نجاده من غير ارتكاب تأوّل مع إرادة طول قامته، وفي قولك : فلانة نؤوم الضحى أن تريد : أنّها تنام الضحى ؛ لا عن تأويل يرتكب في ذلك ، مع إرادة كونها مخدومة مرفّهة" . والمجاز ينافي ذلك، فلا يصحّ في نحو " رعينا الغيث " أن تريد معنى الغيث، وفي نحو قولك في الحمّام أسد، أن تريد معنى الأسد، من غير تأويل ؛ لأنّ المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة - كما عرفت - وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء، والثاني أنّ مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم " (١) .

وأمّا عندما ينبّه الزمخشري على الكناية بقوله : " ومن الكناية والمجاز " أو " ومن المجاز والكناية " فإنّه إنّما يجعل الكناية من المجاز وحسب، فلا يصحّ أن تتأوّل الحقيقة في مثل هذه الشواهد التي يذكرها . فهو حين يذكر - مثلا - " ذهبت به الخيل " (٢) أو " الهموم تنتجي في صدره، وتتنابى " (٣) فإنّه يريد أن يبيّن أنّ الكناية ههنا

---

(١) المفتاح ص ٤١٣ .
(٢) مادة " ذ هـ ب " .
(٣) مادة " ن ج و " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واقعة مجازا ، ولا تجوز فيها الحقيقة ؛ لأنّ هذين التركيبين مجازان ، تُستخلص منهما كنايتان ، أمّا الكناية في الأوّل فكناية عن الكبر والغرور ، وأمّا الكناية في الثاني ، فكناية عن الأرق وكثرة الهموم ؛ ولذلك صحّ للزمخشري أن يطلق على هذه الشواهد عبارته : " ومن الكناية والمجاز " : " ومن المجاز والكناية " ؛ لأنّهما واقعان فعلا ، ولا وجود للحقيقة فيهما .

وقد صرّح الزمخشري بمجازيّة الكناية - أحيانا - وعدم ظهور الحقيقة فيها ، ففي بعض المواد ، فقد قال في مادّة " ب و أ " : " فلان طيّب الباءة : للعفيف الفرج حمل طيب الباءة ، وهي الفناء والمنزل مجازا عن ذلك " . وكذلك في مادّة " ح م م " : " ويقال للمستحمّ : حابت حمّتك ، وحميمك ، إنّما يطيب العرق على المعاني ويخبث على المبتلى ، فسمّاه أطيب الله حمّتك ، وهو من باب الكناية " .

الأهمية البيانية للكناية

لمّح الزمخشري في بعض مواد الأساس إلى القيمة البيانية للكناية ، وقد يفهم هذا من روايته في مادّة " ر ن ف " وهي أنّ رجلا قال لعبد الملك بن مروان : " خرجت بي قرحة ، قال : في أيّ موضع من جسدك ؟ قال : بين الرّانفة والصفن فأعجبه حسن ما كنّى ، وهي ما ساس من الأليّة على الفخذين ، وقيل فرعها الذي يلي الأرض عند القعود " .

إنّ الزمخشري يلمّح في هذا المثل إلى مزيّة ظاهرة للكناية ، إذ إنّ الكناية " باعتبارها من عناصر التصوير غير المباشر " التصوير الفنّي غير المباشر " تشارك بقيّة عناصر الصورة لا سيّما المجاز في كثير من الأبعاد النفسية ، إلاّ أنّ . تكاد تنفرد بواحد منها يكون الأساس النفسي الجوهري لها ، يتمثّل في التلميح إلى المعنى المراد نقله والإشارة إليه من خلال ستار ، ونقل المتلقّي إليه نقلا رقيقا مؤدّبا "(١) كما ظهر ذلك في المثال السابق .

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ذهب عبد القاهر الجرجاني - من قبل - إلى أنّ السّبب في أنْ كان للإثبات بالكناية مزيّة لا تكون للتصريح " أنّ كلّ عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أنّ إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تحيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا ، وذلك أنّك لا تدّعي شاهد الصفة ودليلها ، إلاّ والأمر ظاهر معروف ، ويحيث لا يشك فيه ولا يظنّ في الخبر التجوّز والغلط " (١) .

والواقع أنّ التعبير الكنائي ، يكون أشدّ تأثيرا ، وأوقع في النفس من التعبير المجرّد الذي لا يعدو أن يكون ألفاظا جامدة لا روح فيها . ونلحظ هذا الفرق بين التعبيرين حين ننظر في بيت الفرزدق (٢) :-

إذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم ... خضع الرقاب نواكس الأبصار

فإنّ هذا التعبير يضعنا أمام صورة مهيبة ، نابضة بالحياة ، نحسّ بها ونتخيّلها ونلمح فيها تلك الشخصية المهيبة ، التي تخضع لها الرقاب ، وتنكس لها الأبصار اجلالا وتوقيرا . إنّ هناك بونا شاسعا بين هذا التعبير عن معنى الهيبة وقولنا في هذا المعنى - إنّ يزيد رجل يهابه الرجال ويعظّمونه .

وكذلك حين ننظر في البيت (٣) :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجدْ حطباً جزلا وناراً تأجّجا

إنّ الشاعر لا يريد أن يقول : إنّ في ديارنا حطبا كثيرا ، ونارا عظيمة ، وإن كان هذا محتملا ، ولكن الشاعر يفخر بقومه ، فهو يريد بهذا أن يبيّن للناس أنّهم قوم أسخياء ، لأنّهم حين يكثر المطعّب في ديارهم ، وتتأجّج فيها النيران ، وتظهر في الآفاق ، يلزم من ذلك أن يكون لدى هؤلاء القوم ضيوف كثيرون ، ويلزم من هذا أيضا أنّهم أهل ضيافة وكرم ، فبذلك افتخر الشاعر ، وكان دقيقا في فخره وتصويره .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٢ .

(٢) مادّة " ج ع ع " ، وانظر البيت أيضا في ديوان الفرزدق ، شرح ايليا حاوي ج ١ ، ص ٤٦٦ منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ ط ١ .

(٣) مادّة " ج ز ل " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— ٩ —

البديـــــــع

يزخر الأساس بشواهد جمّة ،تصلح أن تكون نماذج جيّدة ،لكثير من الفنـــون البديعية ،ويبدو — لي — أنّ الزمخشري ،لم يكن يغفل هذا الجانب ،بل إنّه ليـــس من المستبعد ،أن يكون ،قد قصد إليه قصدا ،إذ هو يعمل على تأليف كتاب ،يضمّ فيـــه شواهد تمثّل الأسس التي تقوم عليها البلاغة العربية ،ويعدّ البديع أحد هذه الأســس ومن أبرزها عند مؤلّف الأساس .

وتبرز الشواهد كثيرا من فنون البديع المعروفة ،من مثل الجمع مع التفسيـــــم ومثاله — مما ورد في الأساس — ما نجده في مادة " ح ر ر " :

إن الأحاسة الثلاثة أهلكـــتْ مالي وكنت به قديما ولعـــــا
اللحم والراح المتيق وأطلـــي بالزعفران فلن أزال مرنّعـــا

وكذلك ما نجده في مادة " س ر ر " :

فقلتُ لي نفسان نفس شريـــفة ونفس تعنّاها الفراق بجـــزوع

وفي مادة " ص ر ع " :

والهمّ يعقد نهيّ النفس يبعثـه بالحزم والأصعان : الظلب والحذر

وفي مادة " ر ب ع " :

إنّ في دارنا ثلاثة حبالـــى فوددنا أنّ قد ولدن جميعـــا
جارتي ثم هرّتي ثم شاتـــي فإذا ما وضعن كنّ ربيعـــــا

ونقع — في الأساس — على شواهد ،تدلّ على بعض الفنون البديعية الأخرى ، مثل المبالغة ،وتأكيد الذم بما يشبه المدح ،وتأكيد المدح بما يشبه الذم :

وأما المبالغة ،فمن أمثلتها ما جاء في مادة " ح د ر " :

لو دبّ ذرّ فوق صاحي جلدها لأبان من آثارهن حـــدور

وفي مادة " م ر س " :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لو كنت ماكست لا عذب المذاق ولا سوسا
ملحا بعيد القعر قد فلت حجارته الغوصا

وفي مادة " ر هـ " :

ولو انها بذلت لدى سقم ورد الفؤاد شارف القبس
أنس الحديث لظل يكتبها حران من وجد بها سكر

وفي مادة " و ض ح " :

ولو لبس النهار بنو كليب لدنس لؤمهم وضح النهار

وأما تأكيد الذم بما يشبه المدح ، فمثاله ما جاء في مادة " ح ى ن " :

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم ضحان وحين الضيف إحدى العظائم

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذم فمثاله ، ما ورد في مادة " ق ر ر " :

وما تشتكي جارتي غير أنني إذا غاب بعلها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيرى ويرجع بعلها إليها ولم تقمر عليّ ستورها

هذا وقد كثرت شواهد الطباق والتعليل والتجريد ، فكان من شواهد الطباق - على نوعيه : اللغوي والمعنوي - ما ذكره الزمخشري في مادة " ب ع د " :

من الناس من يغشى الأباعد نفعه ويشقى به حتى الصلات أقاربه
فإن يك خير فالبعيد ينالنه وإن يك شر فابن عم صاحبه

كذلك ما ذكره في مادة " د ن ش " :

لنا جانب منه دميث وجانب إذا رامه الأعداء متنع صعب

وفي مادة " ر ح م " :

ولم يك قطعا قاطعا لقرابة ولكن وصولا للقرابة ذا رحم

وفي مادة " و س ع " :

تسع البلاد إذا أتيتك زائرا وإذا هجرتك ضاق عني مقعدي

وفي مادة " ع ل ف " :

إذا كنت في قوم عدى لست منهم فكل ما عُلِفْتَ من خبيث وطيب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي " ق و ض " :

فتباً لمن لم يجن خيرا لنفسه ... وتباً لأقوام بنوا ثم قوّضوا

وأما التعليل — " وهو أن يدّعي لوصف، علّة مناسبة له، باعتبار لطيف غير حقيقي " — (١) فمن أمثلته ما وقع في مادة " ح د ى " :

رعى طرفها الواشون حين تبيّنوا ... هواها وقد يجدو على النفس شوهها

وفي مادة " ط ر د " :

مازلت أطرد في آثارهم بصري ... والشوق يقناد من ذي الحاجة البصرا

وفي " ف ك ر " :

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة ... ولكنّ تفيض النفس عند امتلائها

وفي " ر ن " :

رأيت أبا الوليد غداة بعت ... به شيب وما فقد الشبابا

ولكن تحت ذات الشيب حزم ... إذا ما خفّ أمرئ أو أصابا

وأما التجريد — وهو نوعان : التجريد المحض، والتجريد غير المحض — فشواهده كثيرة في الأساس، فمن أمثلة التجريد المحض : " وهو أن تأتي بكلام يكون ظاهره خطابا لغيرك، وأنت تريده خطابا لنفسك، فتكون قد جرّدت الخطاب عن نفسك، وأخلصته لغيرك " (٢) ما نجده في مادة " ب خ ع " :

ألا أيّهذا الباخع الوجد نفسه ... لشيء نحتّه عن يديه المقادر

وكذلك ما ورد في مادة " ج هـ ل " :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل ... وكيف تصابي المرء والشيب شامل

وفي مادة " ح ر ى " :

على شرد دارا من سعاد تلفّعت بها ... وتستبر عيناك الدموع فتدمع

فهذا وما شاكله — عند العلوي — من أحسن ما يوجد في التجريد (٣).

---

(١) الإيضاح ص ٥١٨.
(٢) الطراز ج ٣ ص ٧٣.
(٣) السابق ج ٣ ص ٧٤.

All Rights Reserved - Library of Iowan Center of Thesis Deposit

وأما التجريد غير المحض – وهو أن تجعل الخطاب لنفسك على جهة الخصوص دون غيرها (١) فمن أمثلته ما أتى به الزمخشري في مادة "أ و ب" :

أخبّرني يا قلب أنّك ذو غِـرّة ... بليلى فذى ما كنتَ قبلُ تقـول

فآبك هلاّ والليالـي بغـرّة ... تلمّ وفي الأيّام عنك غفـول

وكذلك ما وقع في مادة "ج ن ب" :

يا عين فيضي بدمع منك تسكابـا ... وابكي أخاك إذا جاوزت أبنابا

وفي مادة "ق ع ع" :

فقدتك من نفس شجاع ألم أكن ... نهيتك عن هذا وأنت جميـع

وقد فرّق العلوي بين التجريد المحض والتجريد غير المحض بأن الأول "جرّدت الخطاب لغيرك، وأنت تريد به نفسك، فإطلاق اسم التجريد عليه ظاهر بخلاف الثاني، فإنه خطاب لنفسك لا غير، وإنما قيل له تجريد، لأنّ نفس الانسان لمّا كانت منفصلة عن هذه الأبعاض والأوصال، صارت كأنّها غيرها فلهذا سمّي تجريدا." (٢)

وقد يكون التجريد بما "يُنتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها" (٣) ومن أمثلته ما ذُكر في مادة "ح م س" :

حسبت بنا حتى إذا ما لقيتنـا ... لقيتَ بنا يا عمرو عندَ الأحامسـا

وفي "ذ ر ر" :

لقد أبرزتْ منك الحوادث للعدا ... على رغمهم ذرّيّ عضب مصمّـم

ولقد برز فنّا السجع والجناس بروزا ظاهرا في الأمثلة، أمكن بعد الحديث عنهما بشيء من التفصيل :

---

(١) نفسه ج ٣ ص ٧٤ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ٧٤ – ٧٥ .

(٣) الإيضاح ص ٥١٢ .

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السجع

جاء في الأساس : " حمامة ساجعة وسجوع ،وحمام سجّع وسواجع ،وسجّعت إذا ردّدت صوتها على وجه واحد ،وكذلك سجعت الناقة في حنينها ،ومن المجاز : رجل سجاع وسجاعة ،وكلام مسجوع ومسجّع وسجّعه صاحبه ، وسجّع فيه ، وهو أن يأتي بالقرينين قاعدا على نهج واحد ، وفلان ساجع في سيره ، مستقيم لا يميل عن القصد ". (١)

يُفهم من هذا أن السجع كان في الأصل ترديد الصوت - صوت الحمامة - وسجع الناقة في حنينها على وجه واحد ، متناغم في استقامته ،ثم أطلق السجع عند البلاغيين على الفاصلتين اللتين يُلتزم فيهما نهج واحد .

وقد قسّم البلاغيون السجع إلى أنواع عديدة ، حدّدوها في كتبهم ويبرز منها في الأساس ثلاثة أنواع ،لم يُصرّح الزمخشري بذكرها ،ولكنّنا نفهم ذلك من الشواهد التي بثّها في أساسه ،وهذه الأنواع الثلاثة هي : المطرّف ،والمتوازي ،والمرصّع. (٢)

١. المطرّف : هو اتفاق الفواصل في الحرف دون الوزن ،وأمثلته في الأساس كثيرة منها ما وقع في العبارات الآتية :

فلان أصيل في اللؤم بخّال ،ماله عمّ كريم ولا خال (٣)

انفتر وعدك في الجلمد ،ولا تنقشه في الجمد (٤)

كأنّهم الجان ،وكأنّ وجوههم الجمان (٥)

أكل من حلوائهم ،فانحطّ في أهوائهم (٦)

ما البحار كالخلجان ،ولا اللؤلؤ كالمرجان (٧)

---

(١) مادة " س ج ع "

(٢) الطراز ج ٣ ص ١٨ .

(٣) مادة " ب خ ل "

(٤) مادة " ج م د " والجلمد الصخر ،والجمد بالتحريك والماء الجامد ،والجمد : الثلج أيضا .

(٥) مادة " ج ن ن "

(٦) مادة " ح ط ط "

(٧) مادة " خ ل ج " .

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بكرمك أثق ، وعلى سؤددك أرتفق (١)

يفشمر الإرهاب ،إذا وقع منه الإرهاب (٢)

٢ . المتوازي : هو اتفاق الفواصل في الوزن والحرف، ومن أمثلته :

رزق الله عمرا طويل الاباد ،بعيد الامداد (٣)

الحر إلى الخير سابق ،والعبد من مواطنه آبق (٤)

فلان كريم المواتاه ، جميل المواساة (٥)

ما بقيت منهم باقيه ،ولا وقتهم من الله واقيه (٦)

هذا أمر لو حمل المصاعب ،للقيت منه المتاعب (٧)

أرادوا الصبور ،فعقدوا الجسور (٨)

فلان طمعه بشع ،وهو عليه جشع (٩)

هذا حتم مقضي ،وحكم مرضي (١٠)

في الإساءة إليك ممن ،وأنت منقاد له مذعن (١١)

أصابني بنفحة من عطائه ،ورشحة من سمائه (١٢)

٣ . المرصع : وهو مراعاة الوزن في جميع الالفاظ ،أو أكثرها ،وقد جاء منه في الأساس:

ابن آدم قصير الأجل ، طويل الأمل (١٣)

---

(١) مادة " ر ف ق "

(٢) مادة " ر ه ب "

(٣) مادة " أ ب د " والاباد : جمع أبد وهو الدهر ،والامداد : جمع أمد والأمد الغاية كالسد ونحوه .

(٤) مادة " أ ب ق " وآبق : هارب

(٥) مادة " أ ت ى "

(٦) مادة " ب ق ى "

(٧) مادة " ت ع ب "

(٨) مادة " ج س ر "

(٩) مادة " ج ش ع "

(١٠) مادة " ح ت م "

(١١) مادة " ذ ع ن "

(١٢) مادة " ر ش ح "

(١٣) مادة " أ ج ل ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بينهما مضاعفة عظيمة، وبوّاحنة قديمة (١)
فلان غشيه شجّاج، وبحره عجّاج (٢)
أخذ سلافة العصير، وترك سلالة الشجير (٣)
حسبته مقدما، فوجدته مؤجلا (٤)
فلان للأسرار مذياع، وللأسباب مضياع (٥)
من جزع من الاستبهام، فزع إلى الاستفهام (٦)

تلك هي أبرز الأنواع التي نقع عليها في أساليب البلاغة، ولبنا الشواهدُ المقسمة بهذا الإيقاع المتناغم.

ولا يقف الزمخشري، عند بسط العبارات المسجوعة وحسب، ولكنّه قد يوضّح بعض ما يقع فيها، مثال ذلك أنّه يفرّق في مادة " ر س ب " بين السجع والشعر: " قال: ضربت بالرسب رأس البطريق، بصار ذي هبّة فتيق، وهذا تسجيع ليس بشعر، لاختلاف ضربيه اختلافا خارجيا، أحدهما مقطوع مذال، والآخر مكبول، سلبطريق، وفتيقي." ويبدو أنّ الذي دفع الزمخشري إلى هذا التفريق بين السجع والشعر في هذه المادة، أنّ العبارة المسجوعة فيها، قد جاءت على نمط بحر الرجز، فخشي أن يختلط به، فبيّن الفرق بينهما.

وقد أشار الزمخشري إلى السجع غير المتكلّف، فقال في مادة " ب ش م " " ما أهل الشام إلا كشجر البشام، دهنه من أطيب الأدهان، وعوده مطيبة الأفواه، وهذا

---

(١) مادة " أ ح ن "
(٢) مادة " ش ج ج "، وشجّاج: منصب مصوب، وعجاج: متموّج، وأصل العجاج: ثير العجاج والتعجيج إثارة الغبار.
(٣) مادة " ش ج ر "، والشجير ما عصر من العنب، فخرجت سلافته وبقيت عصارته.
(٤) مادة " ح ج م "
(٥) مادة " ذ ي ع "
(٦) مادة " ف ه م "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه سجع غير متكلف . " وكأنّ الزمخشري يريد بهذا الاستدراك أن يدفع عن عبارته هذه ، وجميع عبارات الأساس ، التكلّف في صناعتها ، وأنّ الستحبّ منها ، ما يجيء عن طبع صحيح ، لا عن تعمّل واغتصاب ، وقد ذهب مرتضى الشيرازي إلى أنّ " الكثير من الأمثلة التي استشهد بها الزمخشري في الأساس " مصنوعة أي ليست من استعمالات القدماء ، ولا ممّا أثر عنهم ، وروى لهم ، بل من استعمالات المتأخّرين ممّن عاشوا قريبا ، من عصر الزمخشري ، أو في عصره ، أو من استعمالات الزمخشري نفسه . " (١)

وهذا المذهب - في تقديري - مذهب صحيح ، إذ إنّ هناك من العبارات المبثوثة في الأساس ما يُلاحظ عليها أثر الصنعة ، ومنها :

نفخ فيها المزيد ، والبريد ، حتى آضت كما تريد (٢)

توالت عليّ الأوالي ، وللتوالي عليّ توالي (٣)

رجال جسام ، ووجوه وسام ، وما فيهم حسام (٤)

الأرض مختلفة الرقاع ، متفاوتة البقاع ، ولذلك اختلف شجرها ونباتها ، وتفاوت بنوها وبناتها (٥)

ومما يؤكّد ذلك أيضا ، قول الزمخشري في مادّة " ص ح ح " : " وتقول : مذهب أهل العدل هو المذهب الصحيح ، وهو الحق الصريح ، وسائر المذاهب ترّهات صحاصح ، لا سداد ولا صحائح " . فأهل العدل هم المعتزلة ، والزمخشري من أشهر أئمتهم ، لذلك ، فهو يتعصّب لمذهبهم ، ويبهاهم - كما هو معروف عنه - غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، فلا شكّ أنّ هذه العبارة من تأليفه .

---

(١) الزمخشري لغويا ومفسّرا ص ٢٧٢ .
(٢) مادة " ب ر د " . وآضت : رجعت
(٣) مادة " ت ل و "
(٤) مادة " ح س م "
(٥) مادة " ر ق ع "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجنـــــاس

لم أقع على تعريف صريح للجناس في الأساس ،ولكنّا نستطيع أن نتبيّن معناه ممّا ورد في مادة " ج ن س " ، فقد جاء فيها " الناس أجناس ، وأكرمهم أنجاس،وهو مجانس لهذا ، وهما متجانسان ، ومع التجانس التآنس ، وكيف يؤانس من لا يجانس" فالمعنى الذي تتضمّنه هذه المادة،هو المشاكلة بين الشيئين أو الأشياء ، وهكذا الجناس بين اللفظين " هو تشابههما في اللفـــظ " (١)

ومن أنواع الجناس البارزة في الأساس ، الجناس التام ،والناقص ،والمحـــرّف، وجناس القلب ،والجناس باختلاف الكلمتين في حرف واحد ، وهي - كأنواع السجع - لم يُسمّها الزمخشري ،ولكنّ الشواهد تُظهرها :

١ . الجناس التـام : وهو أن يتّفق اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها ، وحركاتها وترتيبها . ومن أمثلتـــه :

هو في حمق بَيْهَس،وفي جرأة بَيْهَـــس (٢)
فلان منيع المُعْتَصَرْ،كريم المُعْتَصَـــرْ (٣)
ما أدري شمت عَقِيقَـهْ،أم شمت عَقِيقَـهْ (٤)
هذا يتيم عَائِلٌ ،ليس له عَائِـــــلْ (٥)
طوبى لمن فَازَ بالثواب،وفَازَ من العقاب (٦)
رأيت القُصّاب ينفخون في القُصّـــاب (٧)
فلان إذا ذُكر المَسيحْ ،رَشَحَ جبينه بالمَسيحْ (٨)

---

(١) الإيضـاح ،ص ٣٥٢ .
(٢) " ب هـ س " ،الأول نعامة ،والثاني أسامة .
(٣) " ع ص ر " ،أي منيع الملجأ ،كريم عند المسألة .
(٤) " ع ق ق " ،أي سألت شيئا أم نظرت إلى الأبرق وهي البرقة التي تستطيل في عرض السحاب .
(٥) " ع ى ل " ،أي فقير ليس له من يمونـــه .
(٦) " ف و ز " ،أي ظفر ونجـــا .
(٧) " ق ص ب " ،أي الزمارين ينفخون في المزامير .
(٨) " م س ح " ،بالعـــرق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ . الجناس الناقص : وهو اختلاف اللفظين في أعداد الحروف فقط ،ومن أمثلته :

متى أخطرتك بالبال ،وقعت في البلبال (١)

فلان يبني على جرف هار ، لا يدري ما ليل من نهار (٢)

إذا لم يجملك مالك ،لم يجد عليك جمالك (٣)

أرغم الله مراسنهم ،ومحا محاسنهم (٤)

كيف تكون الرعية سوسة ، إذا كان راعيها سوسة (٥)

إن أفدتني حرفا ،فقد أصفدتني ألفا (٦)

بنو فلان ساكبهم الغارات ،وناكبهم الغارات (٧)

فلان لا يخرج من جهالته ،حتى يخرج القمر من هالته (٨)

٣ . الجناس المصحف: وهو تماثل اللفظين في الحروف واختلافهما في النقط ،ومن أمثلته :

ما حضرت المأتم ،وإنما حضرت المأثم (٩)

كانوا ينزعون من الأنام ،أشد ما ينزعون من الأشام (١٠)

الرامي إذا حذق ،لم يخطىء الحدق (١١)

مالي أراك زائغا عن المنهج ،رائغا عن الحق الأبلج (١٢)

---

(١) " ب ل ل " ،والبلبال : الشدة.

(٢) " ج ر ف "

(٣) " ج م ل "

(٤) " ر س ن "

(٥) " س و س "

(٦) " ص ف د "

(٧) " غ و ر "

(٨) " ه و ل "

(٩) " أ ث م "

(١٠) " أ ش م "

(١١) " ح د ق "

(١٢) " ر ا غ " ، والأبلج : المشرق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه أيام معتدلات ، غير معتـــذلات (١)

سبحان من ينشىء الحبيّ ، ويخرج الخبي (٢)

هم من الرّجال ، وليسوا من الرجال (٣)

٤. الجناس المحـــرّف: وهو اختلاف اللفظين في حركات الحروف فقط، ومن أمثلته :

له أثال كأنّه أثـــال (٤)

ساءه جفاه ، ونبذه جفاه (٥)

عيونهم بكاء ، وما بهم بكاء (٦)

رأيت تبّانا يلبس تبّانـــا (٧)

ربّما كان من الخزامه ، أن تجعل أنفك في الخزامـه (٨)

٥. جنـــاس القلـــب : وهو اختلاف اللفظين في ترتيب الحروف، ومن أمثلتـــه :

لفلان سوابق ، وعَلَىّ بواســـق (٩)

قد أنتفت من أتفحـــك (١٠)

لا تخرجن إلى المساجد في المجامد (١١)

يا شارب الرحيق أبشر بعذاب الحريـق (١٢)

---

(١) " ع د ل " : أي طيبة غير حارة.

(٢) " ح ب و " والحبي السحاب الســـف .

(٣) " ر ج ل " ، والرّجال : جمع رجل وهي أخف الحمـــل .

(٤) " أ ث ل " أي مجد كأنه الجبـــل .

(٥) " ج ف أ " اذا عزل عن صحبتـــه .

(٦) " ب ك أ " . وعيون بكاء : قليلة الدمـــوع.

(٧) " ت ب ن " التبّان : بائع التبن . والتبان : سراويل صغيرة مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط ، يكون للملاحـــين .

(٨) " خ ز م " والخزامة : برة ، حلقة تجعل في أحد جانبي منخرى البعـــير .

(٩) " ب س ق "

(١٠) " ت ف ح "

(١١) " ج س د " .

(١٢) " ر ح ق " . والرحيق هو الخالص من الخمـــر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غرم ألفا ،ورغم أنفـــا (١)

حسبتك راشدا ،فوجدتك شاردا (٢)

بينهما مراضعة الكاس،ومضارعة الأجناس(٣)

٦. الجنـاس باختلاف اللفظين في حرف واحد ،ومن أمثلتـــه :

أحمى بلاك من هو في الحق شـــان (٤)

مرت بجمل ،يري بشـــعل (٥)

لا تجالس من لا تجانس (٦)

ما أنت الا حصاة من جبل ،وحجاة من سبل (٧)

هو في السلم تلعابه ،وفي الحرب ترعابـه (٨)

سقاء الشوب ،بالـــذوب (٩)

هم اليوم أعداء ،وهم غدا أصـــداء (١٠)

القيمة البيانية للسجع والجناس

يُلاحظ من الشواهد الكثيرة التي تضمّنها الأساس،اهتمامٌ واضحٌ بفنّي السجع والجناس،إذ يعدّهما الزمخشري أساسين كبيرين ، من أسس البلاغة العربية،ولعلّ فيما أوردتُه من شواهد ،وما يتبدّى في أغلب صفحات الأساس دليلا بيّنا على هذا التقديـــر، فلِمَ يحتفل الزمخشري بهذين الفنّين كلّ هذا الاحتفـــال ؟

---

(١) " رغ " .

(٢) " شرد " .

(٣) " ضرغ " .

(٤) " ب ل ك " .

(٥) " ح ع ل " أي بأسود يأتي بحجج زهـــر .

(٦) " ح ل س " .

(٧) " ح ج ى " . والحجاة : النفّاخـــة .

(٨) " رع ب " .

(٩) " شرو ب " . أي اللين بالمســـك .

(١٠) " ض د ى " . أصداء : موتـــى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينبغي أن نتذكّر ـ أوّلا ـ أنّ من الاغراض التي ألّف الزمخشري من أجلها أساسَ البلاغة ،تربيةَ الملكة البيانية عند قرّائه ، وتخريجَ الفحول منهم ، والزمخشري يسعى بهذين الفنّين إلى أن يحقّق الغرض على أحسن وجه ، وأيسره ،لذلك نجده يستكثر من الشواهد الأدبية ،التي تعمل على تحقيق ذلك، وهي شواهد سهلة الحفظ ،يسيرة التكاليف، تخلد في ذهن قارئها ،وفي قلب مَنْ يحاكيها ،لما تمتاز به من عذوبة ،وانسياب موسيقي واضح ، وتأثير ،وهكذا القول في السجع والجناس.

والزمخشري يُعنى بهذه الجوانب في شواهده ، وهو ـ وإنْ تكلّف السجع والجناس في بعضها ـ فإنه لم يكن من غرضه ،أن يُظهر لنا براعته ، وإنما حاول أن ينبّه على أهمية هذين الفنّين ، وقد جهد في تحقيق ذلك فصنع نماذجَ تطبيقية أو اختارها ،من أقوال معاصريه ،وقد نجح في أكثرها ،وبدت صنعته مستثقلة في قليل منها . ومما يؤيّد هذا ،أنّ الزمخشري يرى في كتاب آخر " أنّ ما ساء الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها ، بطلب الطباق فيها ، والتجنيس ،والتسجيع ،والترصيع لا يملح ،ولا يبرع، حتى يوازي مصنوعه مطبوعه ، وإلاّ فما قلق في أماكنه ،ونبا عن موقعه فمنبوذ في العراء ،مرفوض عند الخطباء والشعراء " . (١)

ولعلّ من أهمّ الأسباب التي أدت إلى استكثار الزمخشري ، من شواهد السجع والجناس ،أنّ القرآن الكريم ـ وهو كتاب العربية الأعظم ـ قد وقع فيه من ذلك الكثير وأنّ من يحاول أن يصل إلى فهم البيان القرآني ،لا بدّ له أن يتدرب على أساليب هذا البيان الفريد ،حتى يتمكّن من فهمه ؛ ولذلك فقد جعل بعضهم " السجع من أرفع مراتب الكلام وأعلاها ، وأجلّ علوم البلاغة وأسناها ،ولهذا اختاره من بين سائر الأساليب البلاغية التنزيلُ ،وأحاط بطويله وقصيره ،وكان الحسن فيه على أحسن هيئة وتنزيل . " (٢)

---

(١) مقامات الزمخشري ، المقدمة ص ٨ ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) الطراز ، ج٣ ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع ذلك ،فإنّ السجع والجناس ، لا يكونان خليقيين بالاحتفال ،إنْ كانا متكلّفين ،وإلى ذلك ذهب عبد القاهر الجرجاني حين قال : " وعلى الجملة ،فإنّك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ،حتى يكون المعنى ،هو الذي طلبه ،واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا يبتغي به بدلا ،ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه ،وأعلاه ،وأحقّه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلّم إلى اجتلابه ، وتأهّب لطلبه " . (١)

ويرى عبد القاهر ،أنّ السجع ،والجناس ،لا يصلحان في كلّ موضع ،وإنّما يصلحان في موضع دون آخر ،وأنهما ليسا من السّمات المطّردة في القرآن الكريم ، ولا يصلحان عنده للجهة التي تنحو نحو العقل ،وإنّما يصلح لذلك الكلام المرسل . (*)

وهذا ما ذهب إليه الاستاذ العقاد ، فقد كان يختار السجع في موضوعات التهكّم ،والدعابة ،وفي الموضوعات الوجدانية ،وما إليها ، ممّا يلحق بالأغراض الشعرية " فإنّ السجع ينبّه الذهن إلى المعاني في هذه الأغراض ، ويزيدها جلاء ،وتوكيدا ، كأنّه اللحن الذي يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوّة ليست للكلام الذي يسمع بغير تلحين " (٢) .

ولكنّ العقاد ،كان يتجنّب السجع ،في المباحث الفكرية ؛" لأنّه على عكس ذلك يشغل الذهن ،بانتظار القافية ،ونهاية الفاصلة ،فيصرفه عن متابعة الفكرة ،والمضي مع سياق العبارة المتّصلة بين المقدّمات ونتائجها " (٤) .

ثمّ ينبّه العقاد إلى أمر هام من حيث النظرة إلى السجع ،وأرى مضمون كلامه ينطبق على فنون البديع كلّها ؛ لذلك أورد النّص كاملا ،يقول : " ومن الواجب أن نصحّح

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٠ .
(٢) السابق ص ١٠ ،وانظر "كتب وشخصيّات" لسيّد قطب ،ص ٢٩٠ ،دار الشروق، بيروت ،١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ط ٣ .
(٣) يوميّات ،عباس محمود العقّاد ، ج ٢ ص ٣٥٩ ، دار المعارف، القاهرة، ط ٣ .
(٤) السابق ج ٢ ،ص ٣٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هنا أوهاما عارضة، تغلب على جماعة المجدّدين " المقلّدين " الذين يستنكرون أسلوبا من الأساليب ،على السماع ،ولا يسألون أنفسهم :لماذا استنكروه ؟ فليس السجع منتقدا لذاته ،وإلاّ كان نظم الشعر ،أول بالانتقاد .وإنّما يعاب السجع ،إذا اضطرّ الكاتب إلى التضحية بالمعنى ،وبالتعبير السليم في سبيل الأسماع الملفّقة، والفواصل المفتصبة أمّا إذا استقام به المعنى وازداد به تأثيره ،وانتباه الذهن إليه ،فهو واجب مفضّل على الكلام المرسل ،وميزان الحكم في هذا الأسلوب ،أن نحاول استبدال الكلمات المرسلة بالكلمات المسجوعة ، ثم ننظر إلى الفرق بين أثر الأسلوبين ،فإذا ضعف الكلام بعد قوّة ،وسكن بعد حركة ،فالتجديد، هو اختيار السجع ،وإهمال الارسال، ولا مسوّغ لإيثار الكلام المرسل في هذه الحالة ،إلا الشعور بالعجز عن سواه"(١).

---

(١) [illegible] ج٢ ،ص ٢٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــة

لا بدّ لي ـ في هذه الخاتمة ـ من الوقوف على أبرز اللامح التي قامت من أجلها الدراسة، فطوّفتُ في آفاق الأساس، وسَبَرْتُهُ، ثم ألِفْتُهُ صفحةً صفحة، وسطرا سطـــــرا، فآن لها ـ بعد هذا التطواف ـ أن ترسم صورة صادقة لِما انتهت اليـــــه.

لقد أكّدت هذه الدراسة أنّ المعجم اللغوي قادرٌ على استيعاب مسائـــل البيان العربي، وبثّ الروح الأدبية في جَنَباته، ولا يعني ذلك أن يكون عمـــل المعجم تنصيريا، أو استغرائيا، ولكنّه يجيء ضمن إطاره المشهود، مع إضافة عنصـــر الحيوية في مادّه، بالاستكثار من شواهده الأدبية المُرَكّزة، والعناية بانتقاء ألفاظـه الدالّة، التي ألِفَها المجتمع وألِفَتّـــــه.

وقد حاولت الدراسةُ أن تصل بين المعجم، والبيان، وأن توسّع إلى بعض نقـاط الالتقاء، فأسْفَرَتْ عن علاقة وثيقة بينهما من حيث المفردةُ، وانتسافُها في التركيب البياني، ثمّ دلالتها التي لا تُدْرَكُ غايتُها إلاّ بمعرفة المقام الاجتماعي الذي وردت فيـــه. وقد اعتمدتُ في إبراز ذلك، على توضيح العلاقة بين شارح النصّ الأدبي، وشارح المفـردة في المعجم، وعلى ما قدّمه بعض الدارســـين.

ثم سارت على ذات النسق من الجدّة، فبيّنتْ مسائلها من الأساس، بعـــد أن بيّنت أهميّته، وسببَه في أمور كان في مقدّمتها: عنوانُ الكتاب، وغرضُه، وطريقتُه فـــي ترتيب المواد، وعرضِها، فأوحى ذلك إلى بعض الباحثين بأنّ أساس البلاغة معجـــم بلاغي يُعنى بالمباحث البلاغية، وذهب بعضهم إلى أنّه معجم لغوي في الدرجـــة الأولى، وذهب فريق إلى أنّه كتاب مطالعة وحسب، ولذلك اختلفوا في تقدير قيمتـــه وكان كثير منهم يقتصر على عنصر أو عنصرين من عناصرها، وقد عملت هذه الدراســـة على الإحاطة بتلك العناصر، وضمّها تحت عناوين مختلفـــة:

فبحثتْ في موارد الأساس البلاغية، وكشفت عن أهمّها، فكان القرآن الكريم أعلاها، ثم الحديث الشريف، فالشعر، فكلام الأعراب وأظهرت ـ بعد استقصائها ـ غرَضَ الزمخشري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منها ، فإذا هي لا تقلّ عن غيرها من مسائل البيان ،وكانت أساسا كبيرا من أسس البلاغة ،التي عُني بها الزمخشري في أساسه.

ثم درست العبارة في أساس البلاغة ،وكشفتْ عن منهج الزمخشري في عَرْض مواده وسبقه في ذلك ، وضمّنه فنّين من فنون البلاغة في أساسه ،لم يُسبق في تناولهما ،وهما : فنّ التعكيس،ومجاز المجاز.

ثم فصّلت القول في مسائل البيان ،فعرضتْ لعلوم البلاغة ،وأثبتت أنّ الزمخشري كان متقدّما في القول بعلمي : المعاني ،والبيان ولكنّه لم يكن أوّل من قسم البلاغة إلى علومها الثلاثة التي شاعت فيما بعد ،عند البلاغيين المتأخّرين ، حتى بوّبنا هذا ،وانتهت في هذه المسألة إلى أنّ السكاكي كان أوّل من فصل بين علوم البلاغة فصلا حاسما ،أمّا البديع فقد دلّت الدراسة على أنّ الزمخشري كان سبّاقا به اهتماما كبيرا ،ولكنّه خشي من إسراف الأدباء في عصره في استخدام فنون هذا العلم استخداما متكلّفا فلم يُصرّح به كما صرّح بعلمي المعاني والبيان ،غير أنّه بثّ في أساسه الشواهدَ الكثيرةَ التي تدلّ على اعتداده به .

وقامت الدراسة بالكشف عن مفهوم الفصاحة ومقصد الزمخشري منها ،ثم عرضتْ للنحو ومباحث المعاني ، فبيّنتْ عناية الزمخشري بالنحو بشقّيه ، وانتهت إلى أنّ الزمخشري يجعل النحو والصرف في معنى واحد ، ثم ضربتْ أمثلة كثيرة توضّح بعض مباحث المعاني المستنبطة من شواهد الأساس .

ثم خاضتْ في المجاز ، فكشفت عن منهج الزمخشري في التنبيه عليه ، وتمييزه المعاني الحقيقية من المعاني المجازية ،وبيّنتْ مفهومه عند الزمخشري ومَنْ جاء بعده ،وأبانت عن موقع الأساس من الدراسات الدلالية التي تُرشّح عمل الزمخشري في أساسه،لأنّ يكون ركيزة في مشروع التصنيف الدلالي العربي،الذي يجمع تعليقات اللغويين ، والأدباء والفلاسفة ، والمتكلّمين ،والفقهاء،حول دلالات الألفاظ ووضّحتْ ذلك بأمثلة من الأساس نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي المجاز العقلي ، نحت الدراسة نحوا جديدا ، إذ لم تلجأ إلى التفسير الاعتزالي لهذا المجاز ، بل اقتصرت على توصيفه باعتباره مسألة بيانية ذات قيمة في العمل الأدبي ، فعرّفته ، وأشارت إلى بعض علاقاته مثل : المفعولية ، والفاعلية ، والزمانية والمصدرية ، ووقفت موقفا وسطا في مسألة وجود المجاز العقلي ، أو عدم وجوده .

وأما المثل والتمثيل ، فقد أبرزت الدراسة أهميتهما في فنّ القول العربي ، وأوصلت إلى سبب الزمخشري في الاحتفال بهما ، واعتمادهما أساسين مبينين من أسس البلاغة العربية ، واختارت بعض الشواهد التي تبيّن قيمتهما البيانية .

وأما الاستعارة فقد كشفت الدراسة عن سبب استكثار الزمخشري من شواهدها ، ثم عرضت لمفهومها ، وقيمتها البيانية ، مؤكّدة ذلك ببعض الشواهد المتميزة من تلك التي أوردها الزمخشري في أساسه .

وأما الكناية فقد نالت حظّا من الاهتمام والعناية عند الزمخشري ، فأشارت الدراسة إلى ذلك ، وبيّنت مفهوم الكناية ، وموقعها من الحقيقة والمجاز ، وقيمتها البيانية .

ثم جعلت الدراسة البديع خاتمة المسائل ، فقدّمت صورة حيّة لاحتفال الزمخشري به ، والاستشهاد لكثير من فنونه ، ومنها : المبالغة ، وتأكيد الذم بما يشبه المدح وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والطباق ، والتعليل ، والتجريد ، ثم فصّلت القول في السجع والجناس ، وعرضت لقيمتهما البيانية ، وأيّدت العتّاد فيما ذهب إليه من حيث إنّ القيمة الحقيقية لهما ، تنبع من مدى تأثيرهما في إيصال المعنى وكذلك القول في فنون البديع الأخرى .

تلك هي خلاصة ما قامت به هذه الدراسة ، وما انتهت إليه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصـــادر

١. ابن الأثير ضياء الدين (– ٦٣٧ هـ) :
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القسم الأول، تحقيق، د. أحمد الحوفـــي وبدوى طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩م.

٢. ابن الأثير المبارك بن محمد الجزرى (– ٦٠٦ هـ) :
النهاية في غريب الحديث، تحقيق، طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ.

٣. امرؤ القيس (؟)
ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

٤. التبريزى يحيى بن علي (٥٠٢ هـ) :
شرح القصائد العشر، ضبط وتصحيح عبدالسلام الحوفي، دار الكتب العلميـــة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٥. الجاحظ عمروبن بحر (– ٢٥٥ هـ) :
البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر، بيروت ط٤.

٦. الجرجاني عبدالقاهر (– ٤٧١هـ – أو ٤٧٤هـ) :
أ – أسرار البلاغة، تحقيق، هـ. ريتر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
ب – دلائل الاعجاز، تحقيق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٤م.

٧. جرير بن عطية التميمي (– ١١٤هـ) :
ديوان جرير، شرح محمد بن حبيب، تحقيق، د. نعمان محمد أمين طه، دارالمعارف مصر، ١٩٦٩م.

٨. ابن خلدون عبدالرحمن (– ٨٠٨هـ) :
مقدمة ابن خلدون، تحقيق، علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٣.

٩. الخنساء تماضر بنت عمرو (– ٢٤ هـ) :
ديوان الخنساء، شرح ثعلب، تحقيق أنور سويلم، دار عمار، ١٩٨٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠. ذو الرمة غيلان بن عقبة (- ١١٧ هـ) :
ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، تحقيق، د. عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الايمان، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

١١. الزركشي محمد بن عبدالله (- ٧٩٤ هـ) :
البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢م.

١٢. الزمخشري محمود بن عمر (- ٥٣٨ هـ) :
أ - أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥. وطبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
ب - الدر الدائر المنتخب من كنايات واستعارات وتشبيهات العرب، تحقيق د. بهيجة الحسني، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
جـ - الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، طبع عيسى الحلبي وشركاه، ط ٢.
د - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
هـ - المستقصى في أمثال العرب، اعتنى بتصحيحه، محمد عبدالرحمن خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
و - المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢.
ز - مقامات الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٣. السكاكي يوسف بن أبي بكر (- ٦٢٦ هـ) :
مفتاح العلوم، ضبط وتعليق، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤. السيوطي عبدالرحمن (—٩١١هـ) :
الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق، د. عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦م.

١٥. الطرماح بن حكيم (— ١٠٥ هـ) :
ديوان الطرماح، تحقيق، عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨م.

١٦. العسكري أبو هلال الحسن بن عبدالله (— ٣٩٥هـ) :
كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، طبع عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م.

١٧. العلوي يحيى بن حمزة (— ٧٤٩ هـ) :
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م.

١٨. الفرزدق همام بن غالب (— ١١٤هـ) :
شرح ديوان الفرزدق، ضبط وشرح إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ١٩٨٢م.

١٩. الفيروزآبادي مجدالدين محمد بن يعقوب (— ٨١٧ هـ) :
القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت ؟

٢٠. القزويني محمد بن عبدالرحمن (—٧٣٩هـ) :
أ — الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق، محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.

ب — التلخيص في علوم البلاغة، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ١٩٢٢م.

٢١. لبيد بن ربيعة العامري (— ٤٠هـ) :
ديوان لبيد، تقديم وتحقيق، د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٢. ابن منظور جمال الدين بن مكرم (— ٧١١هـ) :
لسان العرب، دار صادر، بيـــروت ؟

٢٣. ياقوت الحموي أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي (— ٦٢٦ هـ) :
معجم الادباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الاخيرة .

٢٤. ابن يعقوب المغربي (— ١١١٠هـ) :
مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص، طبع عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٢٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراجـــــع

١ . إبراهيـم أنيـــس :
دلالة الالفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤م.

٢ . إبراهيم محمد نجـا :
المعاجم اللغوية، مكتبة السعادة، مصر، ١٩٦٦م.

٣ . أحمد عبد الستار الجواري :
نحو المعاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤ . أحمد عبد السيد الصاوي :
في الاستعارة، دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التعقيب على الأدب الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ؟

٥ . أحمد عبد الغفور عطّار :
مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٦ . أحمد مختار عمـــر :
البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثير والتأثّر، عالم الكتب، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٧ . أحمد مصطفى المراغي :
تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٨ . أحمد مطلـــوب :
معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٩ . أمـــين الخولـــي :
فن القول، دار الفكر العربي، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠. أمين محمد فاخـــر :
دراسات في المعاجم العربية ، مطبعة حسان ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١١. تمـام حسّـــان :
اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهـــــرة ، ١٩٧٣م.

١٢. حسـين نصّـــار :
المعجم العربي نشأته وتطوره ، دار مصر للطباعـة ، ١٩٦٨م.

١٣. حفـني محمد شـــرف :
التصوير البياني ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

١٤. رمضان عبد التـــواب :
فصول في فقـه اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠م.

١٥. ريـاض زكي قاســـم :
المعجم العربي ، بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، دار المعرفة ، بيـــروت لبنان ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٦. سـيّد قطـــب :
كتب وشخصيات ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٧. شفيـع السـيّد :
التعبير البياني ، رؤية بلاغية نقدية ، شركة دار الصفا للطباعة ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٨. شوقي ضيـــف :
البلاغـة تطور وتاريخ ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣.

١٩. عباس محمود العقـــاد :
يوميـات ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٠. عبدالحميد الشلقاني :
مصادر اللغة، مطبعة جامعة الرياض، السعودية ؟

٢١. عبدالسميع محمد أحمد :
المعاجم العربية دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٢. عزالدين إسماعيل :
الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٣. عمر الدقاق :
مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٤. فايز الدايه :
علم الدلالة، النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية تأصيلية، نقدية، دار الفكر، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٥. كامل حسن البصير :
بناء الصورة الفنية في البيان العربي، موازنة وتطبيق، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٢٦. كريم زكي حسام الدين :
التعبير الاصطلاحي، دراسة في تأصيل المصطلح وفهومه ومجالاته الدلالية، وأنماطه التركيبية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

٢٧. مازن المبارك :
الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٨. مجيد عبدالحميد ناجي :
الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٧. مصطفى ناصيف :
الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢م.

٣٨. مهدي صالح السامرائي :
المجاز في البلاغة العربية ، دار العودة ، حماة ، سورية ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٣٩. وليد قصاب :
التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الدوريات

١. مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، العدد الثاني ، ١٤٠٤هـ - ١٤٠٥هـ.

٢. مجلة المجمع العلمي العراقي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، المجلد السادس عشر ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

٣. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الرابع والعشرون ، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

٤. مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، المجلد الثلاثون ، ١٩٨٦م.

٥. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، المجلد الأول ، والخامس والعشرون.

المخطوطات

١. مخطوطة غرر الأساس ، ابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢هـ) ، دار الكتب المصرية ، مكتبة طلعت ، رقم ٣١٢ لغة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحـــة
المقدمـــــة	أ - هـ
التمهيـــــد :-	١ - ١١
١- صلة المعجم بالدراسات البلاغيـة	٢
٢- الغرض من تأليف الأســـاس	٥
٣- سـدان الأســاس	٧
٤- قيمـــة الأســـاس	١٠
الفصـــل الأول : الموارد البلاغية لأساس البلاغـة	١٢ - ٢٢
١- القـــرآن الكريـــم	١٤
٢- الحديث النبـــوى	١٥
٣- الشعـــــر	١٨
٤- كـــلام الأعـــراب	٢١
الفصل الثاني : منهج الزمخشري في أساس البلاغـة	٢٣ - ٣٢
١- العبارة في أساس البلاغـــة	٢٤
٢- منهـــج الأســـاس	٢٦
٣- التعكيـــس	٢٩
٤- مجاز المجـــاز	٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــوع	الصفحـــة
الفصل الثالث: مسائل المعاني والبيان والبديع	٣٣ - ١٢٤
١- علـــم البلاغـــة	٣٤
٢- الفصاحـــــة	٤٠
٣- النحو ومباحث المعانـــي	٤٢
٤- المجـــــاز	٥٥
٥- المجاز العقلـــي	٧٣
٦- التشـــــل	٧٩
٧- الاستعـــارة	٨٦
٨- الكنايـــــة	١٠١
٩- البديـــــع	١٠٧
الخاتمـــــة	١٢٢ - ١٢٤
المصـــادر والمراجـــع	١٢٥ - ١٣٣
الفهـــــرس	١٣٤ - ١٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Rhetoric Matters' From

Al-Zamakhshari's The Rhetoric Basis"

" أساس البلاغة للزمخشـــرى "

The Arabic rhetoric attended many attempts in which those associated with it rose to study the rhetoric matters from its origins, until that became a familiar thing to scholars. This study is an attenpt added to those attempts which preceded it, but with a different style which was not familiar to the rhetorical studies before.This happens because it depends,completly, on the linguistic dictionary hopping to mark its rhetorical job and drawing attention to the necessity of taking care of it.

Al-Zamakhshari's book, who died in A.H."538",The Rhetoric Basis " أساس البلاغـــة " is the living model which marks the linguistic characteristics of the general dictionaries.Its anthor is considered the first who paid attention to that.Then he wrote his book perfectly and entitled it with an unprecdented title pointing out his aim from it.

Scholars have been interested in "The Rhetoric Basis" " أساس البلاغـــة " as being an important linguistic dictionary, but despite of its great importance in the Arabic rhetoric,they did not study it in a rhetorical manner; therefore,ti was necessary to study the rhetoric matters comprehensively from The " rhetoric Basis " " أســاس البلاغـــة ",which values it completly and reveals its enlightened sides .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

This study includes a preface, anintriduction and three chapters :

In the preface, I talked about tne relation ship between the dictionary and tne chetorical studies, the aim of writing " The Rhetoric Basis " " أساس البلاغـــــة ", its field and its value .

Then in the first chapters,I discussed the rhitorical resources of " The Rhetoric Bases" " أساس البلاغـــــة " including the Holy Koran, the priphetic speech, pietry and the Arab speech.

In the second chepter, I discussed Al-Zamakhshari's method in " The Rhetoric Basis " " أساس البلاغـــــة ".I talked about its ststement, its method and the arts of reflection and tne figurative expression of the figurative expression .

And in the third chapter, I talked about the matters of the meanings, rhetoric, the science of metaphores and good style.Then I put the end which summarizes the most important things in this study - and a list of the most important sources and references hwich I used .

٣٨٦٥٠٩

" Rhetoric Basis" " أساس البلاغـــــة " according to two basis first, Al-Zamakhshari's proclamation of a rhetoric matter, for instance, if he points out to a rhetoric value which he fonds in the examples cooperated to make clear .The more the examples are, to me

All Rights Reserved Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

the more they become a subject matter to be studied and researched. What I concerned with in The " Rhetoric Basis " " أساس البلاغة " was to find to every matter place in it, and then to define it. After that, I looked at Al-Zamakhsnari's point of view in that and I presented it. I might have presented the rhetoricians' point of view in the same matter - I did not stop at this extent, but I chose literary examples from the same book, "The Rhetoric Basis " " أساس البلاغة ". I analysed these examples and used them as evidences to what I have bee saying .

The most important conclusions which I reached in this study are:The linguistic dictionary has the capacity for the Arabic rhetoric matters and to send the literary spirit alive in its pages. This does not mean that the dictionary must be the orizing,but it must be (the dictionary) as usual with the addition of the vitality to its contents by the large use of literary examples and familiar terms to the people .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit